

الأديان والمذاهب

أديان القمام

اهتدى الفينيقيون بفطرتهم إلى الاعتقاد بالتوحيد على ما يظهر، ودعوا معبودهم البعل -أي الرب والسيد- وقد يسمونه أدون ومعناه السيد أيضًا. ولقبوه بملوك أو ملوخ أي الملك أو ببعل شمائيم أي: رب السماء، ثم أخذوا يصورون الرب ويجسمونه على الصورة التي يختارونها، خصوصًا لما جابوا الأقطار ومصروا الأمصار، فأصبحت كل مدينة تخص الرب بها، فكان أهل صور يطلقون على معبودهم بعل صور، وأهل صيدا يقولون عن معبودهم رب صيدون، وأهل بيروت يعرف ربهم ببعل بيروت، وهكذا يقولون بعل حرمون وبعل جاد وبعل تامار.

وتفتنوا بعد في أربابهم فأخذوا ينسبونها إلى النار وعبادة الطبيعة وأنشأوا يؤلهون قوات الوجود ومظاهرة الرائعة والأفلاك والنجوم. وكما جعل الفينيقيون لأربابهم أنداذا اخترعوا لهم أزواجًا سموها عشروت وقد عبّدت في سواحل الشام خاصة. ثم أخذت بعض المدن بالطبع تطلب لمعبوداتها زوجات وتنشئ لها معابد. وكان معبد بعلة جبيل يحج إليه الناس من أنحاء القطر كما يحتفلون في الربيع بمقتل الرب أدونيس أو نهر إبراهيم. وكان من كهنة الفينيقيين أن أقاموا في أوقات مخصوصة من السنة حفلات دينية تجري فيها أمور غريبة من الرقص والفحش ومن تضحية البنات والأسرى على مذابح الهياكل التي كانت أشبه بمواخير يأوي إليها الفاحشات فيختلف إليهن من يريد الفجور باسم الدين.

ويقال على الجملة: إن الفينيقيين عبدوا في كل بلد مجموعة من الأرباب، فأهل صور عبدوا عشتروت وملكوت وبعلا، وأهل صيدا أشمون وعشتروت وبعلا، وأهل بيروت عشتروت وعطارد وبعل مرقد. وتجيء بعد هذه الطبقة من الأرباب طبقة أخرى منها كالرب أبيس والرب سليمان. ومجموعة الأرباب الكبرى عند الفينيقيين كمجموعة ما عبده الرومان بعد قرون في بعلبك من عطارد والمشتري وغيرهما.

وكانت ديانة الآراميين كديانة الآشوريين يعبدون الرب العظيم ورب الفكر ورب السماء والرب الأسد، ويجسمون رب الأرباب عندهم، على صورة إنسان في نصفه الأعلى، ونصفه الأسفل على صورة سمكة. وذكروا أن شيما كانت ربة أهل حماة. وعبد الآراميون النيازك والشمس والقمر والسيارات السبع والهواء والرياح والنيران وعبدوا أترعطي الربة السورية ودعوها دزكيتو نصفها إنسان ونصفها السفلي سمكة. وكان عابدها إكرامًا لها يمتنعون عن تناول السمك ويتوفرون على فتح أحواض يربون الأسماك فيها. ومن معبودات الآراميين هدد وسميسوس زوج الربة شيما وأترعطي زوج الرب هدد.

وكان الحثيون على مثال من تقدمهم من الأمم عباد أورثان أيضًا، فقد عبدوا الرب تيشوبو وهو مثل هدد الآراميين وبعل الكنعانيين. وروي أنهم عبدوا الشمس وأخذوا عن الكنعانيين عبادة عشتروت وغيرها من الأرباب وأهلوا مظاهر الطبيعة فعبدوا جمالها وجلالها.

وعبد الكلدان والآشوريون أولاً رب السماء ورب الأرباب ورب الأرض ورب البحر، وجعلوا لكل رب هذه الأرباب ربة تكون قرينه. وبعد حين عبدوا القمر والشمس والزهرة، والزهرة هذه ينظرون إليها أنها قد تجسدت فيها الحياة والحرب ففيها اللطف والهمجية، وقد بنوا لها في

المدينة أرك هيكلًا للفحش حتى دعيت هذه المدينة بمدينة العاهرات. وعبد البابليون على عهد حمورابي مردوك رب الأكوان وعبدوا رب الحكمة والعلوم والحرب والصيد والزراعة والموت والزوابع والأنواء والأوبئة. واقتبس الآشوريون عامة معبودات البابليين وزادوا عليها ربهم آشور رب الأرباب عندهم، يتزهونه عن الوالد والولد والزوج، ويعتقدون بحشر الأجساد أو ما يشبه ذلك في يوم الجزاء، ويرمزون إلى أربابهم بحيوانات ودواب كرمزهم بالأفاعي والطيور والسماك والغزلان والبقر والخرفان.

أما قدماء المصريين فقد اهتموا إلى عبادة رب الأرباب وتمثلوه في الشمس الحاكمة على الأكوان. وقدسوا معبودهم على صور شتى ثم أصبح لكل مدينة ربها يعتقدون بأنه واحد يظهر في مظاهر مختلفة من مظاهر الطبيعة من نبات وحيوان وجماد وكواكب وأنهار ولا سيما النيل، وأقاموا لكل واحد من أربابهم الهياكل يخدمها الكهنة والسدنة، ومن أهم معبوداتهم أوزيريس وإيزيس وهوروس - أي الوالد والوالدة والولد. واعتقد المصريون بالآخرة والجزاء في العالم الثاني وحشر الأجساد، ولذلك عُنوا بتحنيط موتاهم على ما لم يصل إليه أحد قبلهم، عل الميت يأنس بصورته.

وعبد الفرس قوى الطبيعة التي وقعت تحت حسهم من شمس وقمر ونار وماء وهواء، ثم عبدوا ميترا التي هي الزهرة، ثم كان من مجوسهم على عهد زرادشت وأخلافه أن عبدوا رب الخير والشر، واسم رب الخير يزدان أو رب النور وهو الرب الأعظم مبدع الكائنات، واسم رب الشر أهرمن وهو رب الظلمة وأصل كل بلاء. قال مانى: مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر، فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدو وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء

الحلم والعلم والعقل والغيب والفتنة، وخمسة أخر روحانية وهي الحب والإيمان والوفاء والمروءة والحكمة، وزعم أنه بصفاته هذه أزلي ومعه شيان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الأرض، وأعضاء الجو خمسة الحلم والعلم والعقل والغيب والفتنة وأعضاء الأرض النسيم والريح والنور والماء والنار، والكون الآخر وهو الظلمة وأعضاؤها خمسة؛ الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة، ومن تلك الظلمة كان الشيطان. والصابئة هم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية؛ أي الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، وينكرون الرسالة في الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب.

هذا وقد دان اليونان كما دان كثير من الأمم القديمة قبلهم بتأليه الجمال على اختلاف مظاهره، عبدوا الجمادات لأول أمرهم ثم ترقوا إلى غيرها من تأليه الأشجار والرجوم والأحجار، وأنشأوا يكومون الأفعى في هياكلهم كما يكرمون بعض حيوانات البحر وطيور البر. وكانوا يببالغون في إكرام الموتى من عظمائهم حتى ألحقوهم بأربابهم، ونسبوا إليهم كل صفات البشر وأبشع رذائلهم. ويقدمون في المذابح ذبائح من الطيور والحيوانات والبشر مما كان عند الفينيقيين. وهكذا كثرت أربابهم إلى التي ليس بعدها، وكلما فتحوا أرضاً أضافوا إلى أربابهم بعض الأرباب التي وجدوها تعبد في الأقاليم المغلوبة على أمرهم، وكثرت خرافاتهم حتى كان يستهدف للموت كل من يريدهم من عقلائهم على أن يقلعوا عن تخريفهم. هذا غاية ما يشار إليه من أديان قدماء الدول التي طال أمرهم في هذه الديار.

ومن أجيال العرب التي حكمت هنا أجزاء مهمة قبل الإسلام النبطيون في الجنوب والإيطوريون في بعض الساحل وقد عبد النبطيون اللات والعزي، وكانت البتراء مركز عباداتهم قبل العهد اليوناني بستة قرون على

الأقل. وعبد الإيطوريون الكواكب والشمس والزهر وذا الشرى، وربما تشابهت معبوداتهم ومعبودات النبطيين. وكان لهم في بعلبك مذبح قالوا: إنه بيت من بيوتهم عظيم عندهم جدًا. وصنم الأقيصر كان في مشارف الشام لقضاة ولحم وجذام وعاملة وغطفان يحجون إليه ويحلقون رءوسهم عنده، وكلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعره قرّة من دقيق أي قبضة. وعرف من الآثار أن أهل صرخد كانوا يعبدون اللات على ما اكتشف على باب كنيستها. ومعظم هذه الأصنام كان مما ينحت من الأحجار ومنها ما كان من الشبه (البرونز)، وقد نقلوا هذه الأصنام إلى الغرب خصوصًا منذ أوائل القرن الثالث قبل المسيح لما قبض على زمام الإمبراطورية الرومانية أباطرة من الشاميين، وقد عثروا على بعضها في فرنسا والنمسا وإيطاليا. وكان ياهو المشهور في تاريخ الإسرائيليين حفيد يهو شافاط الذي قتل جميع أنبياء بعل وعبدته يعبد العجول في بيت أيل. وبيت أيل إلى شرقي خط يمتد من أورشليم إلى نابلس على بعد واحد من كلتا المدينتين وكانت قديمًا عاصمة الكنعانيين.

وقد عبد الرومان قوى الطبيعة من الأفلاك والشمس والأرض والنبات والحيوان وأكرموا الينابيع والأشجار العظيمة والحجارة، ثم عبدوا المشتري وأظهروه في مظاهر عديدة وكانوا يقولون: رب البرق ورب الرعد ورب النور. وجعلوا للمشتري ربة اسمها جونون وعبدوا المريخ رب الحرب يقدمون له ضحايا من الخنازير والبقر والغنم؛ بل يقدمون له الذبائح البشرية يختارونهم من أسرى الحرب على الأكثر. ولهم أرباب أخرى كرب البيت وحارسه ورب نار البيت وجعلوا لها هياكل أقاموا على حراستها بنات عذارى يتعهدون ناراها حتى إذا غفلن عنها فأطفئت وأدوهن على ما كان أهل الجاهلية يثدون بناتهم خشية العار. ولما اختلط

الرومان بالأمم الأخرى اقتبسوا منها ما راقهم من أربابهم ومنها عشترت المعبود الشامي.

قال كلرمون غانو: لم تكد تظهر الوثنية اليونانية الرومانية حتى أصبح الناس يحبونها في أصقاع الشام كافة ويقبلونها راضين؛ وذلك لأنها قائمة على أساس التسامح القابل للظهور في كل مظهر وصورة، تلتئم بمرونة عجيبة مع أشكال الديانات التي تدين بها الشعوب الأخرى. وذلك بأن تمزج هذه الديانات بنفسها أو تمزج نفسها بها، ولم تدخل في ذاك المحيط الخاضع المدهوش إلا إصلاحًا واحدًا وهو معرفة الأشياء الحسنة، ولم تقض إلا بقضاء واحد وهو الابتعاد عن البشاعة، ولم تضع إلا نظامًا واحدًا وهو نظام السرور، ولا تعليمًا واحدًا غير تعليم الذوق، ولم توح بغير الجمال. وكانت ترفق بالأديان التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا تشتد إلا على الأديان التي تحاول مقاومتها. فالعبادات القديمة التي عرفت عند الكنعانيين استقت من هذا النبع الصافي البارد مأخوذة بشيء من الجنون اهـ.

لما جاء كسرى إلى حلب وعمر بيتًا للنار كان في الشام أربعة أديان أمهات، وهي: اليهودية والنصرانية وعبادة الأوثان والنيران. ولما جاء الإسلام كان الناس يدينون بهذه الأديان. وكانت النصرانية قبل الإسلام على رواية اليعقوبية في ربيعة وغسان وبعض قضاة، واليهودية في حمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وكندة، والمجوسية في تميم، والزندقة في قريش أخذوها من الحيرة. وكان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهًا من حنيس؛ والحيس تمر يخلط بالسمن والأقط فيعجن، فعبدوه دهرًا طويلًا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه. ولما مرض عمرو بن لُحي وكان يلي أمر الكعبة في الجاهلية قيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا:

نستسقي بها ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

اليهودية^(١)

يرجع البشر على اختلاف مذاهبهم وأديانهم إلى جد واحد وهو آدم وإلى أبناء سيدنا نوح الذين تناسلوا وتكاثروا وانتشروا على سطح الأرض. ومعلوم أن عرب الجاهلية واليهود هم أبناء سام؛ ولذلك سماوا بالساميين واستوطنوا في الأصل الديار الكنعانية المعروفة اليوم بفلسطين ومشوا منها إلى حدود مصر جنوبًا وإلى العراق، ثم إلى منتصف آسيا شرقًا. والحاميون أبناء حام سكنوا مصر والحبشة وانتشر القسم الثالث أي أبناء يافث فهم في القارة الأوربية والأرض التركية.

ولما ظهر الأب الأول سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومن بلدته الرها (أورفة) من ديار الكلدان جاء منقادًا بمشيئة الله إلى الأرض الكنعانية وأقام في بلدة حبرون أي خليل الرحمن رمزًا لمودة الخالق له. وهنا نغضي عن سرد ما أوتي من المعجزات ونغفل أيضًا عن ذكر من جاء بعده من الآباء والأنبياء الكرام وما أوتوا هم أيضًا من المعجزات والكتب المقدسة حافلة بكل ما يراد معرفته بهذا الشأن. ولا نرى بدءًا من الإشارة فقط إلى أن سيدنا إسماعيل بن الخليل الأكبر قد نزع وأمه هاجر من

(١) رجونا بعض العارفين بهذه المذاهب أن يكتب كل واحد عن دينه، فكتب على اليهودية الدكتور سليمان تاجر وعلى الأرثوذكسية الأرثمنديت توما ديبو المعروف وعلى الكاثلكة الأب لويس شيخو اليسوعي وعلى المارونية الخوري بطرس غالب وعلى البروتستانتية القس أسعد منصور، وعلى أهل الإسلام السنين الشيخ سليم البخاري، وعلى المسلمين الشيعة الشيخ أحمد رضا ووصفنا نحن مذاهب الباطنية كالنصيرية والإسماعيلية والدروز والبابية ووصف السيد محمد عزة دروزة نحلة السامرة.

الأرض الكنعانية إلى شبه جزيرة العرب وبقي أخوه إسحاق في تلك الأصقاع الموصوفة بأرض الميعاد، إشارة إلى العهد الذي أعطاه الخالق سبحانه وتعالى خليله إبراهيم القائل بإعطاء الأرض الكنعانية على رحبها إلى نسله. وقد سميت بالأرض المقدسة أيضًا عندما بدأ اليهود يحجون إلى الهيكل المقدس الذي بناه سليمان الحكيم. وقد كان بناء هذا الهيكل مدعاة لتمسك اليهود بهذه الديار ولعدم النزوح عنها إلا لتعاطي التجارة لمن كان مكرهًا بحكم الضرورة على الإقامة مؤقتًا في الأقطار المجاورة. وقد وُجِدَت في الدهر الغابر آثار تاريخية كثيرة تدل على نزول اليهود حوران ودمشق وبلاد الفينيقيين الواقعة على شاطئ البحر المتوسط.

ومما لا ريب فيه أن اليهود قد أقاموا عصورًا في القطرين الذين دوختهما جيوش النبي داود وأعني بهما سورية وشمال ما بين النهرين. ولما أعمل نبوخذ نصر ملك بابل (٦٠٠ ق م) سيفه باليهود هاجر قسم منها إلى فارس وآسيا الوسطى وآب قسم آخر إلى دمشق. وعادت البقية وعلى رأسها نحميا ودانيان وجددوا بناء الهيكل المقدس، ولم يلبث أن جاء تيطوس الروماني (٧٠ ب م) وهدمه. وقد أعمل هو أيضًا السيف برقابه واضطرهم إلى النزوح إلى الأمصار البعيدة كالإيونان والأندلس وشمال إفريقية. وقد روي عن بولس الرسول أنه حاول إقناع اليهود القاطنين في الشام لأتباع السيد المسيح والتدين بدين النصرانية، وهذا مما يدل على وجودهم في تلك الأزمنة في هذه الديار.

ثم إن قائدي عساكر سيدنا عمر عندما فتح الشام انتقيا نفرًا غير قليل من اليهود والمسلمين الدمشقيين أرباب الصناعات والفنون الجميلة وحيء بهم بعدد إلى بلاد بخارى فتوفروا على البناء المتوافر تمام المماثلة للنسق الدمشقي من حيث طرز البناء ورسومه وأشكاله وأدواته حتى يخيل لمن يزور تلك الأصقاع أنه في سوق أو دار من أسواق الشام ودورها.

ثم إن نزول اليهود في دمشق منذ أمد بعيد مشهود ومحسوس من كنيس قرية جوبر التي تبعد بضع دقائق عن شرقي دمشق، وقد جاء ذكره في التلمود الموضوع منذ أكثر من ألفي سنة، وذلك بقوله في الحرف الواحد: «كنشادييه جوبر» ومعناه كنيسة جوبر القائمة إلى يومنا هذا والتي كانت مقرًا للنبيين إيليا (الخضر) وتلميذه الإشاع (اليسع). وفي بعض دور الكتب العبرية في دمشق إلى اليوم آثار مخطوطة يرجع عهدها إلى القرن الحادي عشر للميلاد. وصفوة القول أن اليهود لم ينقطعوا عن الشام لا سيما عند فتح المساميين لها إذ ثبتت أقدامهم فيها وتوفرت لهم أسباب الهناء والرخاء.

ولم تؤثر التطورات والفتوحات التي وقعت في هذا القطر في اعتقاد اليهود الديني ولا غيرت شكلًا من مراسمهم، بل كانت بالعكس سببًا قويًا لتضافرهم وتحفزهم لدرء كل ما من شأنه أن يفسد لهم معاملاتهم وعاداتهم. وما زالوا منذ الخلقه كسائر اليهود يعبدون الله عزَّ وجلَّ ويوحّدونه ويعرفونه بيهوّه كما تسمى إلى آدم وإلى الآباء والأنبياء بقوله لهم باللفظ العبري: «إني يّ هه وه» أي: أنا يّهوه.

وقد فصل المجتهدون من علماء اليهود اسمه المقدس تفصيلًا وافيًا خلاصته باللغة العبرانية: «هيا، هيو، يهيه» ومعناه كان (في الماضي) وكائن (في الحال) وسيكون (في المستقبل) أي: إنه تعالى حي قيوم دائم إلى الأبد. وكان يرفق أحيانًا اسمه الكريم في التوراة كلمة «إلوهيم أو شداي» ومعناها الجبروت والشدة. ويحترم اليهود أيضًا الأنبياء الذين أوحى إليهم في زمن ملوكهم وعددهم ٤٨.

يتألف اليهود مع مواطنيهم مهما اختلفت نزعاتهم. فهم فرنسيس في فرنسا، وروس في روسيا، وإنكليز في بريطانيا، وهنا أيضًا لا يختلفون عن

الشاميين من حيث الأخلاق والزي. ولأسمائهم دخل قوي في الألفة مع مسلمي الشام. فهم يتسمون بأسماء لا يسمى بها غيرهم من اليهود كصبحي وصبري وعارف ومراد ويحيى وعبدو وبهية وعائشة وجمالية إلى ما هنالك من الأسماء المحضة، ومما يزيد ائتلافهم مع المسلمين أنهم مضطرون بحكم الدين الموسوي أن يراعوا مثلهم أحكام الختان والغسل والطهارة.

ولغة اليهود «العبرية» أينما حلوا ورحلوا يتعرف بها بعضهم إلى بعض وبها يؤدون فروض صلواتهم اليومية وشعائرتهم الدينية، ولغتهم هذه هي شقيقة اللغة العربية. فإن الصرفيين العرب لا يتعذر عليهم معرفة دقائق الصرف العبراني، وكذلك العبرانيون لا يصعب عليهم تعلم اللغة العربية والتعمق في دقائقها. وهي كما قلنا لغة سامية تكتب كالعربية من اليمين إلى الشمال وأغلب كلماتها هي كشقيقتها لفظاً ومعنى. وعدد حروفها ٢٢ حرفاً وهي: اب ج ده و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت أي: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت.

وقد كان للغة العبرانية الفضل الأكبر في حفظ حياة اليهود إلى هذا الزمن؛ فهي التي جمعت شملهم في البلدان المختلفة وهي التي ذبت عن خياضهم وحافظت على كياناتهم. وقد حث العلماء المعاصرون على رفعها إلى مصاف اللغات الحية مما حدا بهم على تأسيس الجامعة العبرية في القدس الشريف في ١ نيسان سنة (١٩٢٥) وبدءوا بترجمة الآثار النفيسة والكتب المفيدة إليها. ولا يمضي زمن حتى يكون لهذه اللغة على ما أرى شأن عظيم ومركز سام. ورب قائل يقول: إنه قد بحثوا دون توسع علماء اليهود في الترجمة والإنشاء فقدان الكلمات الفنية الحديثة من اللغة العبرانية، فالجواب أن التلمود أتى على ذكر بعض المخترعات التي نظنها وليدة القرن الغابر أو الحاضر كالمناطيد والكهرباء وسماها بأسمائها

المخصوصة. وقد أعيدت إلى اللغة في هذا العصر ومع هذا لم يحجم علماء اللغة في القرن الماضي عن استعمال الكلمات الدخيلة المحتاج إليها والتي تفي بالمعاني المقصود إدخالها على اللغة العبرانية.

السامرة^(١)

ينسب السامريون أنفسهم إلى سبط يوسف وينسب كهانهم أنفسهم إلى سبط لاوي، ويقررون أن هذا السبط هو بيت الكهنوت الإسرائيلي حصراً.

و«السامرة» نسبة إلى إقطاع شمرونيم الذي كان في ملك سامير الأشوري الشمروني. وذلك أن الأشوريين لما غزوا فلسطين غزوتهم الأولى انتشروا في الأقاليم وامتلكوا كثيراً من الإقطاعات. وكانت فرقة شمرونيم تملك إقطاع سبسطية وأخذوا يستغلون أرضه بعد أن خربوا المدينة المذكورة. ثم آل هذا الإقطاع إلى سامير أمير الفرقة فجاء إليه أحد ذوي اليسار من آل يوسف واشترى إقطاعه وأخذ يعمره هو وآله، فلبستهم نسبة الأرض ثم ابنتوا أخيراً مدينتهم التي تسمت بالسامرة نسبة إلى أصل تسمية الإقطاع ومالكة الأشوري.

ويعزو السامريون سبب انشقاقهم عن سائر أسباط إسرائيل إلى خلاف ديني نشأ بينهم وبين هذه الأسباط؛ وذلك أن الإسرائيليين ظلوا إلى القرن الثالث من دخولهم أرض كنعان يقدسون جبل جرزيم الذي هو جبل

(١) لا شك أن المطلعين على ما جاء في التوراة المعتبرة عند اليهود والمسيحيين معاً سيجدون بوناً عظيماً بين ما ذكر في هذه الرسالة وبين ما جاء هناك؛ ولكننا أردنا أن ننقل ما يقوله السامريون عن أنفسهم، وكتبت هذه النبذة اقتباساً من كتاب مخطوط ألفه أحد كهان الطائفة السامرة في نابلس.

«نابلس» الجنوبي ويقربون عليه قرابينهم اعتقادًا منهم أن يوشع أقام هيكل العبادة الأول في هذا الجبل. وكان إلى ذلك التاريخ مركز حجهم ومقام إمامهم الأكبر وكاهنهم الأعظم. فلما ورث الإمامة الكبرى الإمام عزي ابن بحقي وكان حديث السن فحسده الكاهن الأعظم عالي وأنف أن يكون له مرءوسًا وأخذ يدس الدسائس حتى نجح في استمالة فريق من الإسرائيليين فهجروا جرزيم وانتقلوا إلى سيلون - قرب القدس - وكان ماهرًا في الشعوذة وأعمال السحر، فعظم حوله الجمع فأقام هيكلًا وصندوقًا للشواهد وادعى أنهما الأصليان وأوجب تقديسهما وصرف الوجوه عن جرزيم.

وقد ساعده في عمله اختفاء الهيكل وصندوق الشواهد اللذين أقامهما يوشع على جرزيم بأعجوبة ربانية انتقامًا من اليهود لمخالفتهم الشريعة وانغماسهم في المعاصي. فاعتبر سائر اليهود قول عالي وأخذوا يقدسون هيكل سيلون.

أما سبط يوسف ولاوي فإنهما ظلا على عهدهما من نصر الإمام عزي وتقديس جرزيم واعتباره المحل المختار الذي اختاره الله للهيكل والذبيح.

ومن هذا الحين أصبح الإسرائيليون فرقتين: فرقة عزي ومركزهم جرزيم وحدوده، وفرقة عالي ومركزهم سيلون. وقد استحكمت العداوة بين الفرقتين فأخذتا تبتعدان إحداهما عن الأخرى وطفقت كل فرقة تلتصق بالأخرى التهم، وجرت بينهما مناقشات ومنازعات كانت تؤدي في بعض الأوقات إلى إراقة الدم.

يقول السامريون: إن عالي الكاهن بعد أن عظم أمره أخذت مطامعه تظهر وأساء السيرة في اليهود هو وأولاده وأخذوا يخالفون أوامر الله

وشريعته، وقد تبنى ولدًا اسمه صمويل أنقن الشعوذة. واغتنم الفلسطينيون فرصة انشقاق الإسرائيليين فزحفوا على اليهود ونكلوا بهم، فلما مات الكاهن خلفه صمويل فلم ير إلا أن يدعي النبوة ربطًا لقلوب اليهود به، فصدقه هؤلاء لقوة شعوذته ودهائه ولكنهم طلبوا منه أن يقيم عليهم ملكًا يدير شؤونهم ويجمع شملهم دفعًا لخطر الفلسطينيين فأقام عليهم شاول الملك. وكان من أعمال هذا الملك إشهار الحرب على سبطي يوسف ولاوي لعدم اتباعهم لهم وعدم اعتبارهم هيكل سيلون وذبحهم معهم في مذبح سيلون. وقد كبس شاول السبطين في عيد المظال فقتل منهم كل من وجده وذبح إمامهم الأكبر شيشي بن عزي وخرب محل عبادتهم في جرزيم ونقض حجارة الهيكل.

واحتل منطقتهم فتشتت قسم كبير من اللذين سلموا من القتل منهم. وظل آل يوسف ولاوي اثنين وعشرين عامًا ولا يقدرّون على أداء فريضة الحج ولا يجرءون على التظاهر بشعائرهم الدينية. وقد حاول كاهنهم الأكبر باير إقناع داود حينما ملك باحترام جرزيم وبناء الهيكل فيه فلم ينجح، وأخذ يقيم الهيكل في ياييس «القدس الآن» وادعى هو وابنه سليمان من بعده أنه المحل المختار وأناطوا به جميع المقدسات المنوطة بجرزيم دون أن يكون في أسفار التوراة الخمسة دليل على ذلك. في زعم السامريين.

ولما غزا بختنصر فلسطين أجلى في من أجلاه آل يوسف إلى بابل وأسكن محلهم أممًا غريبة، فسبب ذلك انحباس الأمطار وعطب الزيتون، فالتمس القاطنون من الملك أن يسأل آل يوسف عن سبب ذلك فأجابه هؤلاء أن لنا جبلًا مقدسًا نحج إليه ونتقرب إلى الله فيه بالقرابين لا نرى فيه حبسًا ولا عطبًا، فعزم على إعادتهم إلى أرضهم ليقيموا شعائرهم. وقد وقع في هذا السياق بينهم وبين آل يهوذا خلاف على المحل المختار؛

ولكن آل يوسف أقنعوا الملك بقوة نصوصهم فرجحهم وأعادهم وجعل لهم شيئاً من السلطة فجاءوا وأقاموا هيكلهم وزحفوا على يابيس وهدموا هيكلها. فكان نجاحهم هذا عاملاً جديداً في ازدياد النفرة بين الفريقين أولاً وتحريف اليهود نسخ التوراة الموجودة في أيديهم ثانياً.

وقد طعن اليهود في أصلهم فقالوا عنهم كوتيين وعتوهم بأنهم وثيون وأن لهم صنماً اسمه أشيما نكايّة وتغرضاً وانتقاماً. وقد كان اليهود في عهد الحكم الروماني والفارسي كثار العدد. وكان لهم يد كبرى في الثورات الوطنية التي كانت تنشب من حين إلى آخر، وقد أفنت هذه المنازعات عدداً كبيراً، فلما دخل العرب فلسطين أخذ السامريون يدينون بالإسلام فيقل عددهم رويداً رويداً إلى أن أصبحوا طائفة قليلة جداً ربما لا يتجاوز عددها الآن مائتي نفر ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً. وقد اقتبسوا من المسلمين واقتبس المسلمون منهم في نابلس على توالي الأيام كثيراً من العادات واللهجات. وهم الآن يتكلمون بالعربية النابلسية العامة. وقليل منهم يعرف العبرانية كما أن عبرانيتهم قديمة بينها وبين عبرانية اليهود اختلاف بين، وإن تمت اللغتان إلى أصل واحد. ولا يزال أصل بعض الأسر المسلمة في نابلس معروف النسبة والأرومة في الطائفة السامرية.

ينعت السامريون أنفسهم بالمحافظين لأنهم حافظوا ولا يزالون يحافظون على أدق شعائر العبادات والشريعة دون تأويل ولا انحراف، ويزعمون أن التوراة التي في أيديهم أصدق وأقدم توراة وأنها بخط أيّشع فينحس ابن العزربن هرون نقلها أيّشع عن المدرج الذي كتبه بيده موسى عليه السلام. وتوراتهم هذه مدرج طويل من الرق له أسطوانة مفضضة محفوظة في معبدهم تكاد تكون سلوتهم الوحيدة في هذا العالم الذي أصبحوا فيه غرباء عن كل أممهم وأثرًا تاريخيًا أكثر مما هو شعب حي.

وهم يزعمون أن توراة اليهود قد فقدت مرارًا وحرقت كثيرًا وأن التوراة التي بين أيدي اليهود ملفقة بالظن والحدس على غير أساس، وأن اليهود عدا ذلك قد تسامحوا بكثير من مظاهر الدين وأولوا نصوص الشريعة فصار بينهم فروق كثيرة. وفي أيدي السامريين كتب جدلية كثيرة في تثبيت طريقهم والطعن في طريقة اليهود وتفسيراتهم وتأويلاتهم.

وأول خلاف نشأ بينهم وبين اليهود خلاف القبلة؛ فالسامريون يعتبرون جبل جرزيم الجبل المقدس والمحل الذي أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده عليه والذي أمر يوشع من قبل موسى بإقامة الهيكل فيه ويقررون أن عيد الفصح وقرابينه لا تجوز إلا في هذا الجبل وحدود منطقتها التي لا تتعدى منطقة نابلس الآن. ومن الخلافات بينهم وبين اليهود وقت الختان؛ فالسامريون لا يقبلون عذرًا لتأخير يوم الختان إلى ما بعد اليوم الثامن من الولادة على حين يتجوز اليهود في ذلك. وبين الفريقين خلاف في مواعيد الأعياد وشعائرها وفروعها وقرضية القرابين والطبقات الملزمة بها. وللسامريين أصول فلكية دقيقة يستندون إليها في حساب تولد الأهله وتعين مواعيد الأعياد والشعائر. ويخالف السامريون اليهود في تجويز بعض الأنكحة فهم يحرمون نكاح امرأة الأخ الشقيق و بنت الأخ وزوج الأخت وامرأة العم وامرأة الخال واليهود يحللونها. وكذلك هم يختلفون في بدء عيد الفطير والطقس الخمسيني ذوي الأسابيع السبعة المقدسة التي يحيي بها الإسرائيليون ذكرى أسابيع الخروج من مصر ودخول أرض كنعان. والسامريون يتشددون في شعائرتهم الدينية لا سيما يوم السبت، ويزعمون أنهم يطبقون أوامر التوراة حرفيًا. ويتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة وكيفياتها ويحملون أنفسهم عبئًا لا يملك الإنسان نفسه من الشفقة عليهم من أجله. وهم اليوم لا يغسلون موتاهم ولا يحملونهم وإنما يستأجرون لهذين الغرضين أناسًا من المسلمين؛ لأن

للميت وغسله ومائه نجاسات يتعذر طهر السامري منها في الحال الحاضر. ويقولون: إن السامري لا يطهر منها إلا إذا رش بعد عزلة الأيام السبعة برماد بقرة مقررة الصفات. وقد نفذ هذا الرماد الذي كانوا يتوارثونه منذ أمد طويل ولم يمكنهم تعويضه. وللسامريين صلوات مفروضة يوم السبت وغيره. ففي غير السبت لهم صلاتان مفروضتان هما صلاة الصبح وصلاة المغرب. وفي يوم السبت صلاتان زائدتان على تينك الصلاتين هما صلاة الظهر وصلاة الصرفة. وصلاتهم ذات ركوع وسجود وانتصاب يتلون فيها سورًا من التوراة. وهم يتوضؤون قبيل الصلاة وضوءًا يقرب من وضوء المسلمين.

وأهم أعيادهم عيد الفصح في آخر أسبوع الفطير، ويكون في الرابع عشر من

الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان. وهو عيد سنوي جامع يشبه الحج؛ يصعد السامريون فيه كبارهم وصغارهم جبل جرزيم، ويوجبون حضوره على كل سامري ولا يقبل للمتخلف عذر. فإذا كان يوم العيد وأخذت الشمس بالزوال تهيأوا للعيد في ثياب بيضاء وجبب زاهية واعتصموا بعمائم بيضاء أو حرير (أغبانية) مطرزة وهياؤا سبعة أكباش سالمة من كل عيب ونقص وحفروا تنورًا عميقًا بينونه بحجارة مرصوفة من دون طين. فإذا آن وقت الغروب يأخذون بتلاوة التوراة وقراءة التراتيل مصطفين على شكل إمام ومؤتمين، فحينما يأزف الوقت المقرر وهو بين الغرويين يعطي الكاهن الأكبر إشارته فيذبح الذبائح الأكباش بسرعة البرق، ثم ينتهون من هذه الصلاة الأولى ويبادرون جميعًا لتحضير الذبائح ينتفها أناس ويملحها آخرون، وبعضهم يوقدون النار ويحمون التنور وهم في كل أعمالهم هذه في صلاة لا يفترون عن التلاوة والترتيل، ثم يحرقون شحوم القرايين وأطرافهم على مذبح يصنعونه من الحجارة ويلقون بعد

ذلك الذبائح في التنور، ويقضون بعد ذلك ثلاث ساعات في الصلاة ريثما تنضج القرابين فيرفعون عنها الحجارة ويخرجونها ويأكلونها، وبعد أن ينتهوا من الأكل يحرقون الفضلات والعظام؛ إذ إنه لا يجوز لغريب أن يمس الذبيحة ولا أثرًا منها. وقد اعتاد المسلمون في نابلس أن يصعدوا الجبل في هذا اليوم للتفرج أولاً ولزيارة شيخ لهم اسمه الشيخ غانم يظن أنه من شهداء الحروب الصليبية اهـ.

وفي كتاب ولاية بيروت أن شروط العقيدة الأصلية عند السامريين خمسة؛ وهي الاعتقاد بوحدانية الله، ونبوة موسى، وأن التوراة كتاب منزل، وأن جبل جرزيم هو مقدس، وأن الساعة آتية لا ريب فيها. ويعتقدون أن الله منزه عن جميع الصفات ولا يؤمنون بنبوة أحد من الأنبياء سوى موسى ويؤمنون بعبادته أن البشر يحاسبون على أعمالهم في اليوم الآخر ويؤمنون بمجيء المهدي ويطلقون عليه أسماء مختلفة فيسمونه «حاشا حيب» و«حاطا حيب» و«مرجع» وأن لظهوره علائم فيظهر كلمة الله وينقل عصا موسى وألواح العشرة ويجيء بقدرة المن وهي الحلوى الإلهية. ويعتقد السامرة بالملائكة ويفرض على كل سامري أن يصلي ويؤتي، فلصلاة صلاتان: إحداها صلاة الصبح، والثانية صلاة الغروب، وكل صلاة إحدى عشرة ركعة، جماعة أفضل، والصلاة مفروضة على الرجال والنساء؛ ولكن النساء لا يخالطن الرجال خلال الصلاة، ويشترط أن يكون المصلي طاهرًا والطهارة عندهم على نوعين الغسل أولاً والوضوء ثانياً، فالطهارة من الحدث شروط أولى على كل موسوي حتى إن لمس الحائض موجب للغسل، وعلى الحائض أن تحضر ثلاثاً من النساء يقفن على رأسها حين اغتسالها، وأما الوضوء فيغسل المتوضئ أولاً يديه، وإذا كان من أصحاب الأعمال اليدوية فيغسل يديه إلى المرفقين والساعدين ثلاث مرات، ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثاً ثم يغسل

وجبه ويمسح أذنيه ويغسل رجليه ثلاثًا. ويتلون التوراة في الصلاة باللسان العبري القديم وتجوز تلاوتها باللغة السامرية. والحج عند السامريين هو عبارة عن زيارة جبل جرزيم؛ وهو ثلاثة أشكال حج الفطير وحج العنصرة وحج المظال. ويمسكون في صومهم أربعًا وعشرين ساعة قبل حج المظال بخمسة أيام، فلا يدخل السامري كبيرًا كان أو صغيرًا شيئًا إلى فمه حتى الطفل الرضيع، فإنه يمنع من الرضاعة طول هذه المدة، ولا ينامون مطلقًا في هذه الأربع والعشرين ساعة، بل يقضونها بالطاعة والعبادة. أما الزكاة في عبارة عن إعطاء واحد في العشرة من الأرباح إلى الكاهن والفقير. ويحجب السامريون نساءهم ويجوز الزواج ثانية إذا كانت المرأة عاقراً أو مريضة أو ذات عيب شرعي. وأصول مواريثهم لا تخالف أصول الشريعة المتبعة عند جميع الموسويين.

الأرثوذكسية

ليس من دين يدين به أبناء آدم إلا فيه مذاهب متباينة بتباين منازع زعمائه؛ فقد خاصم أهل الختان المنتصرون رسل المسيح ليقنعونهم بوجود اختتان الوثنيين الراغبين في التدين بالنصرانية؛ ولكن الرسل والكهنة اجتمعوا في أورشليم في السنة الخمسين بعد الميلاد وحكموا بالألأ يتقل بهذا الناموس على من يرجع إلى الله من الأمم (اع ١١: ٢ - ٣ و ١٥: ١ - ٣١ و ١٦: ١ - ٣).

وفي القرن الثاني نشأت في الدين المسيحي بدع اليهود الناصريين والأنيونيين والكلساعيين والشمشونيين والفرنوستيين على تفرق نحلهم فانتبذتهم الكنيسة وعاجلهم سهم القضاء. وقام بعدهم مبتدعون كثيرون اشتهر منهم في القرن الرابع قس كنيسة الإسكندرية أريوس، إذ كفر بالوهة المسيح فجمعت عليه الكنيسة سنة (٣٢٥) مجمعًا مسكونيًا في

مدينة نيقية حضره أول ملوك المسيحيين القيصر قسطنطين الكبير وثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ما عدا الكهنة والشمامسة والعلماء وحكمت عليه فعري من الكهنوت ونفي وقطع السبب باتباعه.

وبتأثير ضلال آريوس كفر مكدونينوس أسقف القسطنطينية بالروح القدس فحكمت عليه الكنيسة وعلى بدع أفنوميوس وأبوليناريوس وصباليوس وماركلوس وأفدوكسيوس وفوتينوس بالمجمع الثاني المسكوني الذي التأم سنة (٣٨١) في القسطنطينية على عهد القيصر ثيودوسيوس الكبير وحضره مائة وخمسين أسقفًا أثبتوا صلاحية المجمع الأول الشرعية وأكملوا دستور الإيمان الذي وضعه، قاضين بإقامته على كل أرثوذكسي فهو شعار إيماننا إلى يوم القيامة ومطلعه «أومن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض...». وحطوا مكدونينوس من رتبته الكهنوتية فسكن نسيس مشايحه.

وأولع نسطوريس أسقف القسطنطينية بعشق الإمامة نافرا إليها في شاكلة من «خالف ليُعرف» فكفر بالمسيح وأمه مريم فرمته الكنيسة بإقحاف رأسه في مجمعها الثالث المسكوني الذي اجتمع في مدينة أفسس سنة (٤٣١) على عهد القيصر ثيودوسيوس الصغير وحضره نحو مائتي أسقف قرعوا ضلال نسطوريس بالحق فأسقط من الكهنوت ونفي إلى مصر وياتت بدعته تدمى في الكلدان كالخنفساء إلى اليوم.

وركب أوطينا الراهب رأسه في محاربة ضلال نسطوريس حتى انتشر عليه رأيه في طبيعتي المسيح ففسد إيمانه بهما وأغرق في غوايته حتى انتصفت منه الكنيسة بجكهما عليه وعلى بدعته بمجمعها المسكوني الرابع الذي اجتمع في خلكيدون سنة (٤٥١)، وحضره القيصر مركيانوس وستمائة وثلاثون أسقفًا.

وضرب الدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة فشردوا قَدَدًا رنقت عليها
المنية لولا زعيمهم أسقف أرفا يعقوب الزنلي المشهور بالبرادعي، فإنه
لأم صدعهم بتجديده لهم مركز البطريركية في أنطاكية فتمسوا «باليعاقبة»
إكرامًا له وانقسموا إلى سريان وأرمن ومصريين.

وفي سنة (٥٥٣) اجتمع المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية
على عهد القيصر يوستينيانوس الكبير، وكان أعضاؤه مائة وخمسة وستين
أسقفًا حكموا على غوايات أوريجانوس الشهير وما يُعرف في التاريخ
الكنسي «بالقضايا الثلاث» وأثبتوا أحكام المجمع المسكونية الأربعة.

وفي سنة (٦٨٠) التأم المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية
وحضره القيصر قسطنطين اللحياني ومائة وسبعون أسقفًا، وفي رواية
أخرى مائتان وتسعة وثمانون أبا حكموا على القائلين «بالمشيئة الواحدة»
في المسيح، منهم سرجيوس بطريرك القسطنطينية وأونوريوس بابا رومية
وأقاموا المجمع المسكونية الخمسة فباتت هذه البدعة تعالج النزاع في
شيعة الراهب يوحنا مارون التي عرفت «بالمردّة» وانحصرت على فتن
لبنان وتسمى الآن «بالمارونية» نسبةً إلى الراهب المذكور الذي صار
أسقفًا أول عليها حتى استوفت أنفاسها أيام حملات الفرنج الصليبين على
الشام سنة (١١٨٢) فإنهم جذبوا الموارد إلى الخضوع لكنيسة رومية
فثبتوا فيه بعد أن طرد المسلمون الصليبين، إلا أنهم أبدلوا بدعة «المشيئة
الواحدة» بما ابتدعته رومية بعد أن قطعتها الكنيسة من شركتها في القرن
الحادي عشر.

وفي سنة (٧٢٦) بدأ القيصر لاون الإيصوري محاربة صور الأولياء
الأيقونات وبقاياهم وشايعة أساقفة كثيرون فتأذت الكنيسة من هذه البدعة
حتى حكمت عليها في مجمعها السابع المسكوني الذي اجتمع في مدينة

نيقية سنة (٧٨٧) على عهد القيصرية إيريني الوصية على ابنها قسطنطين السادس وحضره ثلاثمائة وسبعة وستون أباً؛ إلا أن هذه البدعة تجددت في الشيع البروتستانتية في أوائل القرن الخامس عشر، ولا تزال ترهقها بأضرار جمة عاملة على تشعث ألفتها وتمزق شملها.

وفي سنة (٨٧٩) التأم المجمع المسكوني الثامن في كنيسة أجيا صوفيا وحضره القيصر باسيلوس المكدونى وعماله ليحافظوا على النظام جرياً على عادة أسلافه العواهل العظام وثلاثمائة وثلاثة وثمانون رئيس كهنة أثبتوا دستور الإيمان الذي وضعه المجمعان الأول والثاني على ما مرّ قاضين بانتباز من يزيد فيه أو ينقص منه. ولا يحصى هذا المجمع رسمياً مع المجمع السبعة المذكورة؛ مع أن الكنيسة كلها شرقاً وغرباً اشتركت فيه وقررت أحكامه بالاتفاق التام جرياً على عاداتها فيها؛ وسبب ذلك أنه لم يلتزم بعده مجمع مسكوني تام الشروط ليثبت صلاحيته الشرعية اتباعاً لنظام المجمع.

ونشرت كنيسة رومية الدين المسيحي في شعوب أوربا أيام كان الله خاتماً على قلوبهم، فبذلوا لها مقادتهم وخشع ملوكهم أمام أساقفها فعصفت في رعوس الباباوات زوابع المجد العالمي واسترسلوا في سعيهم وراء السلطة المطلقة على الممالك والكنائس، فنزل جهل الغرب المطبق على مقترحهم وأسدر عيونهم نور الشرق - والشرق مبعث النور - فنصح لهم البطيركان المسكونيان أن يتزعوا، فما كان منهم إلا أن غلوا في طغيانهم فبذتهم الكنيسة بمجمع التأم على عهد القيصر قسطنطين مونوماخس والبطيريك ميخائيل المذكور، فعمدوا بعد يأسهم إلى القوة البدنية توصلًا إلى ما اشأبت إليه أطماعهم فسيروا على الشرق الحملات الصليبية التي سودت بإفحاشها فيه مجلدات برمتها حتى محقها المسلمون وطهروه منها وردوا على الكنيسة الأرثوذكسية حقوقها التي منحها إياها

الخليفة عمر بن الخطاب وخلفاؤه. فمقت الروم اللاتين حتى آثروا أن يروا عمامة السلطان محمد الثاني (الفتاح) في كنيسة أجيا صوفيا على أن يروا فيها كمة البابا.

ولما انحجب نور الشرق عن رومية تاهت كنيستها في شعاب الباطل فأجفل منها معظم أمم أوروبا متعوذين بالمذهب البرتستانتي، فأنشأت لهم «ديوان التفتيش» المشهور بفظائعه. ثم لما سطع فجر العلم في أوروبا وامتنع عليها إكراه الناس على التدين بما تمليه عليهم عمدت إلى دهاء الرهبانيات كالجزويت والكبوشيين وغيرهم فاستغوت بالمال خزائن من الطوائف الشرقية القديمة، منها حزبة الروم الكاثوليك الذين استغوتهم من الملة الأرثوذكسية فانتحلوا لأنفسهم وصف «الملكيين» ليوهموا الناس أنهم الأصل ولكنهم لم يوهموا إلا أنفسهم فصدق فيهم قول المتنبى:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

أما الحقيقة التاريخية فهي أن القائلين «بالطبيعة الواحدة» من أقباط مصر نعتوا الأرثوذكسيين «بالملكيين» لتمسكهم بإيمان ملوك القسطنطينية.

فمن هذه الحقائق التاريخية التي أيدتها شواهد العقل والنقل المثبتة في المطولات يعلم المطالع:

١- أن الحقيقة الإنجيلية حُفظت في الكنيسة الأرثوذكسية مصونةً عن كل شائبة بدعة وضلال وستحفظ إلى منتهى الدهر (مت ١٦ : ١٨ و ٢٨ : ٢٠ يو ١٤ : ١٦).

٢- وأن المملكة البيزنطية التي عاشت زهاء ألف ومائة وخمسين عامًا قد ناصرَت الكنيسة على صيانة هذه الحقيقة مؤثرة إياها على المصلحة المادية.

٣- وأن أمر الكنيسة الأرثوذكسية شوري؛ لأنها تعمد في حل المشكلات إلى المجامع اقتداء برسل المسيح المخلص فلا يستبد فيها شخص واحد برأيه (مت ١٨: ١٥ - ١٧ واع ١٥: ٦).

٤- وأن السلطة العليا فيها منحصرة في المجامع المسكونية وحدها فهي تؤمن بما حدده من عقائد الإيمان المقررة في الكتاب المقدس وتؤتمر بأوامرها وتحفظ قوانينها وتنبذ كل نبذتها وتحكم على من يتجاسرون على نقض أحكامها والعبث بقراراتها أيًا كانوا.

٥- وأن الشرق كان موطن أخبار الدين المحققين، وجهابذة اليقين الراسخين، الذين حددوا العقائد المسيحية تحديدًا لا يحتمل التأويل والتبديل بما أقاموا عليها من البينات الواضحة والحجج الدامغة مما اضطر الغرب أن يجعل قياده في يده وينزل على حكمه في جميع الأمور الدينية.

٦- وأن الروم الأرثوذكسيين كانوا أصحاب البلاد وكان معتقدهم سائدًا في من توطنها من العباد حتى افتتحها المسلمون وأمنوهم على دينهم وأموالهم فعاش بوجاهتهم في الممالك الإسلامية حتى اليوم بقية الطوائف النصرانية التي حكمت عليها الكنيسة قبلاً، وقد قال القرآن الشريف في الروم: {غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون} سورة الروم.

الكثلكة

الكثلكة أو الدين الكاثوليكي أو الكنيسة الكاثوليكية اسم واحد للمذهب الديني المعروف الذي يدين به اليوم نيف وثلاثمائة مليون من البشر كما ورد في أضبط الإحصاءات الحديثة. يعلن أصحابه ويثبتون قولهم بالبرهان أنه هو الدين الوحيد الذي بشر به السيد المسيح قبل تسعة عشر قرناً وأخذه عنه رسله الحواريون لينشروه بأمره في كل العالم (متى ٢٨: ١٨ - ٢٠ مرقس ١٦: ١٥) تحت رئاسة الأساقفة الخاضعين للحبر الأعظم بابا رومية وخلف القديس بطرس المقام من السيد المسيح كالمقلد للرئاسة العامة المطلقة على كنيسته وكراعي نعاجه وخرافه (متى ١٦: ١٨ - ١٩ يوحنا ٢١: ١٥ - ١٧)، وأما اسمها فمشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة والمنتشرة في كل الأرض؛ لأن الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد الرسل انتشرت في جميع أنحاء المعمور حتى ما وراء حدود المملكة الرومانية.

وأصل الكثلكة تلك الجماعة الأولى التي أنشأها السيد المسيح بذاته ودعاها كنيسة (متى ١٦ - ١٨) ألفها من الاثني عشر رسولاً (متى ١٠: ٢ - ٥) ثم من الاثني والسبعين تلميذاً (لوقا ١٠: ١) وأنبأهم بتبشير إنجيله في كل العالم (متى ٢٦: ١٣)، وأوصى تلامذته قبل صعوده أن يتلمذوا كل الأمم ويعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس ويعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصاهم به (متى ٢٨: ١٩ - ٢٠) فما مر عليهم بضعة أيام حتى حل عليهم البارقليط أي الروح القدس الذي وعدهم بإرساله (يوحنا ١٥: ٢٦) فأنطقهم باللسنة جميع الأمم التي كان حضر بعض أبنائها أورشليم لعيد العنصرة ووقفوا بذلك على الدين الجديد (أعمال ٢: ١ - ١٢) فاعتمد في ذلك اليوم ثلاثة آلاف من اليهود (أعمال ٢: ٤١) ثم بلغ

عددهم خمسة آلاف بعد أيام (٤ : ٤)، ثم شاع اسمهم فعرفوا بالمسيحيين (١١ : ٢٦) ثم صار التخصيص بظهور بعض الشيع فدعوا بالكاثوليك وكنيستهم بالكنيسة الكاثوليكية قريبا من عهد الرسل، كما ورد في كتاب القديس أغناطيوس تلميذهم والفيلسوف يوستينيوس النابلسي المستشهد سنة (١٦٥م) ولم يزل مذ ذاك الوقت اسمهم الخاص دون سواهم.

يؤمن الكاثوليك بكل العقائد التي أوحى الله في الكتب المنزلة وفي التقليد. وتقسم الكتب المنزلة إلى قسمين؛ أسفار العهد العتيق وأسفار العهد الجديد. وأسفار «العهد العتيق» منها أولية ومنها ثانوية؛ فالأولية هي التي كتبت في الأصل باللغة العبرانية وهي: أسفار موسى الخمسة (التكوين والخروج والأخبار والعدد وتثنية الاشتراع) ثم الأسفار التاريخية (يشوع والقضاة وراعوت والملوك الأربعة وأخبار الأيام الاثنان وعزرا ونحميا وأستير) ثم الأسفار النبوية: أربعة كبار (أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال) واثنا عشر صغار (هوشع ويوثيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجاي وزكريا وملخيا)، ثم الأسفار الحكيمة (مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الأناشيد والجامعة).

أمَّا الأسفار (الثانوية) فهي التي كتبت بالكلدانية أو اليونانية ونقلت في الترجمة المعروفة بالسبعينية وهي: طوبيا ويهوديت وابن سيراخ والمكايون (اثنان).

وهذه كتب «العهد الجديد»: الأناجيل الأربعة القانونية للرسولين متى ويوحنا وللتلميذين مرقس ولوقا، ثم سفر أعمال الرسل للقديس لوقا، ثم رسائل القديس بولس الأربع عشرة ثم رسالة القديس يعقوب ورسالتا بطرس وثلاث رسائل يوحنا ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا.

وفي الكنيسة الكاثوليكية معتقدات أخر ليست مدونة في الأسفار المنزلة؛ وإنما أخذتها بالتعليم الحي بسلسلة متواصلة من عهد الرسل إلى يومنا وأعلنت بها في مجامعها أو في براءات أبحارها وفي تعليمها اليومي. وخلاصة هذه المعتقدات المدونة في أسفار العهد العتيق، ولا سيما في أسفار العهد الجديد مرجعها إلى ما يلي:

أولاً عقيدة التوحيد: أي اعتقاد وجود إله واحد روح بسيط أزلي لا أول له ولا آخر لا يحصر جوهره المكان، قائم بذاته ذو صفات وكمالات لا حد لها من قداسة وحكمة وقدرة ورحمة وعدل. وهو خالق كل الكائنات الروحية والهيولية من العدم بجوده واختياره.

ثانياً عقيدة التثليث: هذا الإله الصمد ذو الجوهر الفرد والطبيعة الإلهية الواحدة له ثلاثة أقانيم هي صفات جوهرية نسبية متساوية بكل كمال وكل قدرة لا يفرقها شيء سوى نسبة بعضها إلى بعض. فندعو الأفتوم الأول «أباً» وهو أصل اللاهوت غير مولود وغير منبثق. والثاني «ابناً» مولوداً من الأب منذ الأزل ليس ولادة جسدية بل ولادة عقلية روحية بمعرفة الأب لذاته ولكمالاته يصدر بهذه المعرفة ابنه الشبيه به وضياء مجده وصورة جوهره (عبرانيون ١ : ٣ كولوسي ١ : ١٥) فهو إله من إله نور من نور إله حق من إله حق من جوهر الأب (دستور نيقية). والثالث (روحاً قدساً) منبثقاً من الأب والابن ليس بطريق الولادة العقلية؛ بل بتبادل حب الأب لابنه وحب الابن لأبيه المولود منه. وهذا الحب ليس عرضياً بل جوهرياً ندعوه الروح القدس. وهذه عقيدة تثليث الأقانيم في الله أوصى بها الله بنوع خفي في العهد العتيق كما يؤخذ من بعض آياته، ثم صرح به السيد المسيح في نصوص عديدة من الإنجيل وقرره تلاميذه في رسائلهم بما لا يبقى في الأمر أدنى ريب وإن كان سرّاً يفوق الإدراك البشري.

ثالثاً عقيدة التجسيد: هو سر الأقبوس الثاني من الثالوث الأقدس الذي تأنس واتخذ في أحشاء مريم العذراء دون زرع بشري طبيعتنا البشرية بكل خواصها ما عدا الخطيئة ليفدي بني آدم من تبة الخطيئة الأصلية التي ارتكبها الأبوان الأولان بمخالفتها لأوامره تعالى في جنة عدن وخلفاها لسائر نسلهما وبها حصل هلاك الجنس البشري ففقد البرارة الأصلية التي منحها قبل خطيئته فلم يعد أهلاً للتمتع بالنعيم الأبدي ومشاهدة الله في السماء. وإذ كان الإنسان غير قادر على الوفاء عن خطيئته لجلال الله فإنه تعالى رحمه ووعده بمخلص يُعيد له بفدائه ما فقدته من تلك النعم (تكوين ٣: ١٥) وليس هذا المخلص إلا السيد المسيح منتظر الآباء والأنبياء وجميع الشعوب وهو الإله المتجسد ذو الأقبوس الإلهي الواحد وذو الطبيعتين الإلهية والإنسانية (يوحنا ١: ١٤ و٣: ١٦ لوقا: ٢٦ - ٣٦) فهذا الإله المتأنس قضى على الأرض ثلاثاً وثلاثين سنة يعمل ويعلم وأنشأ كنيسة وأسلم نفسه اختياراً للعذابات وللموت، ثم قام بقوة لاهوته من قبره في اليوم الثالث وتراءى مراراً لتلاميذه ثم صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً. وبكل ذلك أتم جميع ما تنبأ عنه الأنبياء دون أن يخل من نبواتهم حرفاً.

ولما كانت أعماله سواء صدرت من طبيعته الإلهية كالمعجزات التي صنعها أو من طبيعته الإنسانية كمولده وموته ذات قيمة غير متناهية لصدورها عن شخصه الوحيد الإلهي شخص ابن الله فقدمها لأبيه ولا سيما موته على الصليب تكفيراً عن خطايا البشر الذين يستطيعون بعد ذلك أن ينالوا نعمة البرارة والخلاص الأبدي بواسطة المعمودية والأعمال الصالحة والتوبة عن الزلات.

رابعاً عقيدة القيامة: يؤمن الكاثوليك بخلود النفس فعند انفصالها عن الجسد بالموت تدخل السماء إن كانت طاهرة من كل خطيئة ثقيلة أو

خفيفة وتعاقب بعقوبات جهنم إن كانت في حال الخطأ المميت دون توبة عند الموت.

أما إذا كانت مدنسة ببعض الخطايا الخفيفة أو لم تكفر تمامًا عن خطاياها السابقة المغفورة فيحكم عليها بعذابات مؤقتة، وذلك ما يدعونه المطهر ريثما تفي لعدل الله الوفاء التام. وفي آخر الأزمنة سيبعث الله الموتى من قبورهم فيعودون إلى أجسادهم ليحضروا. الدينونة الأخيرة التي يتلوها السيد المسيح فيحكم نهائيًا على البشر فيجازي الأبرار بالنعيم الأبدي ويعاقب الأشرار بالعذاب الدائم (يوحنا ٥ : ٢٦ - ٢٩).

خامسًا المعتقدات التقليدية: ما عدا المعتقدات السابقة التي وردت في الأسفار يؤمن أيضًا الكاثوليك ببعض الحقائق التي لم تصرح بها الكتب المنزلة وإن أمكن إثباتها من بعض آياتها كعقيدة عصمة الحبر الأعظم من الغلط في أمور الإيمان والآداب إذا علم كنانث المسيح وكخليفة هامة الرسل وكعقيدة حبل العذراء مريم بلا دنس وكعقيدة وجود المطهر وهلّم جزءًا.

فهذه العقائد يمكن ترقيتها بسلسلة متواصلة إلى زمن الرسل تشهد عليها نصوص الآباء والمجامع جيلًا بعد جيل ويُعلن بها أرباب الكنيسة في تعليمهم اليومي بالإجماع. لما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلن بكونها هي كنيسة المسيح ويعارضها في ذلك غيرها من الكنائس المنفصلة عنها كان لا بد أن تمتاز الكنيسة الحقيقية عن سواها ببعض العلامات الخاصة. وهذه العلامات قد سبق الرسل ودونها في دستور الإيمان المنسوب إليهم وتكرر ذكرها في كل دساتير الإيمان المتقررة بعدهم وهي أربعة: أن تكون الكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية. وهذه العلامات لا تستطيع أن تثبتها لنفسها أي كنيسة كانت إلا الكنيسة الكاثوليكية.

فهي «واحدة» باتفاق جميع أعضائها في خضوعهم لرأس واحد منظور هو نائب المسيح وخليفة بطرس هامة الرسل، ثم في اعتقادهم كل ما تعلمه الكنيسة دون خلاف وأخيرًا في اشتراكهم بالأسرار عينها.

وهي «مقدسة» لأن منشأها السيد المسيح هو القداسة بالذات ثم لأن كل تعاليمها وآدابها صالحة مقدسة ولأنها أيضًا تقدم لذويها وسائط جملة لتقديس نفوسهم لا سيما بالأسرار السبعة التي رسمها المخلص أعني المعمودية والميرون والتوبة والقربان الأقدس ومشحة المرضى والكهنوت والزواج بقريية واحدة دون طلاق. ولذلك قد أولدت عددًا لا يحصى من القديسين في كل أنحاء العالم تشهد على قداستهم أعمالهم العجيبة وفضائلهم السامية التي لا تزال آثارها ظاهرة لكل ذي عينين. وكفى دليلًا عليه وجود الرهبانيات الساعية وراء الكمال بنذورها والمتفانية في عمل كل خير دون غاية زمنية.

وهي «جامعة» لأنها وحدها قد نشرت تعاليمها في جميع أقطار العالم المعروف فقام دعائها بأمر الرب الموصي بنشر إنجيله بين كل الأمم ومن ثم لا يكاد يخلو قطر من بعض تبعتها. وهي أعظم عددًا من أي مذهب كان إذا قيس بها منفردًا منقسمًا كالروم والشيع البروتستانية والبوذية والبرهمانية وهلم جرا. وفي اسمها دليل على هذه السمة فإن الكاثوليكية معناها الجامعة.

وقد ظهرت هذه العلامة منذ عهد الرسل إذ يقول القديس بولس في رسالته إلى أهل رومية (١ : ٨) «إن إيمانكم يبشر به في العالم كله».

وهي «رسولية» لأن سلسلة أخبارها الأعظمين تتصل دون انقطاع برأس الكنيسة الأول القديس بطرس هامة الرسل. ويوس الحادي عشر

الجالس اليوم سعيدًا على كرسي رومية إنما هو خلفه المائتان والسادس والستون.

هذه علامات الكنيسة الكاثوليكية الأصلية. أما ما يرى في بعض بلاد الشرق من الاختلافات في الطقوس واللغات والعبادات الدينية، فكل ذلك ثانوي عرضي يمكن تغييره مع الزمان دون أن يمس جوهر الكنيسة الكاثوليكية لا بل يزيدها ويزيدها جمالاً.

ومعلوم أن الكنيسة الكاثوليكية انتشرت بكل سرعة في العالم كله منذ عهد الرسل الحواريين حتى تجاوزت حدود المملكة الرومانية. ولوقوع بلاد الشام في جوار فلسطين لا يستغرب انتشار النصرانية فيها قبل سواها، وذلك ما تثبته أقدم الشواهد التاريخية وأولها سفر أعمال الرسل الذي منذ يلوح إنشاء الدين المسيحي في أنطاكية (١١ : ٢٦) وفي سائر سواحل الشام ذكر منها صور وعكة وقيصرية (٢١ : ٣ - ٨).

ويمكننا أن نتتبع تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في الشام جيلاً بعد جيل على الرغم مما حل بها من اضطهادات الوثنيين، وعلى الرغم مما شاع من البدع كالأريوسية واليعقوبية والنسطورية والمنوئية، فلم يكن بين الطوائف الشرقية ما يفصلها عن الكنيسة الرومانية في إيمانها وخضوعها لرأس الكنيسة الرومانية وآدابها غير الأعراض السابق ذكرها، والدليل على ذلك إكرام كنائس الشرق لقسيس الغرب وإكرام الغربيين للقسيسين الشرقيين. وفي طقوس الشرقيين القديمة ما يشهد إلى اليوم بتلك الوحدة والاتفاق. وكذلك سير القديسين الشرقيين تثبت ذلك الأمر. وكثيرون منهم أزهروا في الشام كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس أفرام السرياني والقديس مارون الناسك.

غير أن تملك العرب على الشام واستفحال الشيع المضادة لتعاليم الكنيسة وصعوبة طرق المواصلات بين الشرق والغرب أضعفت الدين الكاثوليكي كثيرًا في الشام، إلى أن عاد فتعزز بقدم الصليبيين إلى الشرق ثم بدخول المرسلين منذ القرن الثالث عشر في هذا القطر، فظهرت آثاره الطيبة أولاً بين الموارنة ثم بعد ذلك بزمن بين الروم والأرمن، ثم بين الكلدان والسريان حتى قامت لكل هذه الطوائف كنائس منظمة لها بطاركتها وأسقفتها ورعاياها، ولكل طائفة تاريخها الخاص يترجم عن أعمال بنيتها ومشاهير ملتها وارتباطها مع الكرسي الروماني.

واليوم يبلغ إحصاء الكاثوليك في الشام نيفًا وستمئة ألف معظمهم الموارنة (٣٠٠،٠٠٠)، ثم الروم الكاثوليك (١٢٠،٠٠٠)، ثم الأرمن (٨٠،٠٠٠)، ثم السريان (٢٠،٠٠٠)، ثم اللاتين (١٠،٠٠٠)، ثم الكلدان (٢٠٠٠) هذا ما عدا المهاجرين إلى أميركا وغيرها.

وقد تعززت الكتلثة في الشام بدخول الرهبان وأقدمهم الفرنسيون في القرن الثالث عشر، ثم في القرن السابع عشر الكرمليون والكبوشيون واليسوعيون، ثم في أواخر القرن الثامن عشر اللعازيون، وفي القرن التاسع عشر إخوة المدارس المسيحية والإخوة المريميون مع راهبات من رهبانيات مختلفة كراهبات الزيارة وراهبات المحبة واليوسفيات وراهبات القلبين الأقدسين وراهبات السجود وراهبات العائلة المقدسة وراهبات العجز إلخ. ولكل من هؤلاء الرهبان والراهبات من المشروعات الجليلة ما يكفي وحده لتشريف الكنيسة الكاثوليكية، والله الحمد على كل حال.

المارونية

الموارنة طائفة من النصارى الكاثوليكين الشرقيين يعرف من تواريخهم أنهم ينتسبون إلى الناسك البار القديس مارون القورسي النشأة

على ما يرجح. اعتزل هذا الفاضل الدنيا في أواخر القرن الرابع ولجأ إلى صومعة في قمة جبل غير بعيد عن أنطاكية فما لبث عرف فضائله أن فاح في تلك الأنحاء ف جذب إليه جماعات قصدوه ليلتمسوا منه بركته وصلواته ويسترشدوا بتعاليمه ويقتدوا بسيرته، وقد زهد قوم منهم بالدنيا واختاروا العزلة والتفرغ لخدمة الله في المغاور وأعالي الجبال ليقيموا بعيدين عن ضوضاء العالم، على أن أربح حياتهم الطاهرة لم يمكن إخفاؤه فتقاطر المجاورون حول تلك المناسك وتألقت منهم طائفة عرفت فيما بعد باسم الطائفة المارونية، وكان أهم المراكز التي التفوا حولها دير القديس مارون المبني على ضفاف النهر العاصي في نواحي أفامية.

ولما توافر عددهم مست الحاجة إلى تنظم أحوالهم الروحية فأقيم لهم بطريرك هو البار يوحنا مارون وبه ابتدئ سلسلة بطاركة الموارنة، وعاش هذا البطريرك الأول في أواخر القرن السابع في حين كان للموارنة أمراء يديرون شئونهم الزمنية، ثم أخذ الموارنة يهجرون إلى الأقطار المجاورة، فنزل قوم منهم في جبال عكار وعمروا فيها القرى، وسارت فئة نحو الجنوب إلى لبنان الشمالي فما عتموا أن قويت شوكتهم فيه فبلغ في القرن العاشر عدد رجالهم الصالحين للقتال أربعين ألفاً على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية. وقصد فريق منهم سورية الداخلية فاستوطن جوار دمشق واستغل الأرض فيها وبنى الدساكر والمرابط. وفريق أمّ القدس وآخر نزع إلى قبرس في أيام الصليبيين وبعض الأسر سكنت حلب في أواسط القرن الخامس عشر وهبط بعضهم مصر ورودس ومالطة؛ على أن الأغلب فضلوا الإقامة في جبال لبنان فاعتصموا بها ونموا وكثروا رغم ما أصابهم من النكبات في أوقات مختلفة. ولما ضاق بهم جبلهم رحل قسم منهم إلى بلاد المهجر كأميركة وإفريقية وأوقيانية حيث ألفوا جاليات لها مقامها المعترف في عالم التجارة والصناعة والأدب

كسائر إخوانهم اللبنانيين والسوريين، وبلغ عدد الموازنة ويدخل فيه المهاجرون خمسمائة ألف نسمة.

أما في الدينيات فيتفق الموازنة مع الكاثوليكيين بمعتقدهم وشرائعهم الدينية والأدبية وهم مثلهم خاضعون لسلطة بابا رومية، وإنما لهم وللسريان لغة طقسية واحدة هي السريانية لكنهم يختلفون عن سائر الطوائف بترتيباتهم ونظام إدارتهم الروحي المبينة كلها في دستورهم المجمع اللبناني الذي عقد سنة (١٧٣٦) وفي عاداتهم المشروعة، ويرأس الطائفة بطريرك يعرف ببطريرك أنطاكية مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين مركزه الشتوي دير سيدة بكركي فوق جونية، ومقره الصيفي جديدة قنوبين لبنان الشمالي فوق طرابلس، ويخضع لإدارته مطارنة يقيم بعضهم نوبًا له وبعضًا علي أبرشيات معينة مستقل بعضها عن بعض، ويعهد إليهم في تدبير هذه الأبرشيات الروحي والزمني وإدارة أوقافها مباشرة أو بواسطة وكلاء يسمونهم لذلك ويراقبون أعمالهم، وفي الأبرشيات كهنة يعنون بخدمة الرعايا. وفي الطائفة جمعيات رهبانية يقيم أعضاؤها في أديارهم ومدارسهم ويتفرغون لخدمة الله والنفوس.

وكان للموازنة شرع خاص يتقاضون بموجبه أقره لهم جميع الذين حكموا القطر من نصارى وغيرهم، ولا تزال أغلب قوانينه مرعية الإجراء عندهم حتى اليوم.

ونبع منهم في رجال الدين كثيرون نذكر منهم البطاركة جرجس عميرة الذي ألف أول غراماطيق سرياني ووضع قواعده باللغة اللاتينية ليسهل على المستشرقين درس هذه اللغة، ثم العلامة أسطفانوس الدويهي المؤرخ المشهور، ويوسف حبيش وبولس مسعد ويوحنا الحاج،

والبطريك الحالي إلياس الحويك صاحب المواقف المشهورة في القضايا الوطنية.

ثم الأساقفة كالمطران جرمانوس فرحات والسيد يوسف سمعان السمعاني ويوحنا حبيب ويوسف الدبس وغيرهم كثيرون من رجال الدين ممن خدموا اللغة العربية والقانون والتاريخ.

وبين العلمانيين أمراء شهاب وبيت أبي اللمع وأناس امتازوا بخدمة وطنهم وأعمالهم المبرورة كآل خازن ودحداح وحبيش والسعد وكرم والظاهر، ونبغ غيرهم في خدمة العلم كآل البستاني والشدياق والنقاش والبازي. ولا يمكن في عجالة سرد أسماء جميعهم.

البروتستانتية

التأم في أوائل سنة (١٥٢٩) في إحدى مدن جرمانيا مؤتمر بأمر الإمبراطور كارلس الخامس قرر عدم السماح بإحداث تغيير في الرسوم الدينية وكان هذا القرار موجهاً ضد الإصلاح والمصلحين. وفي ١٩ نيسان من نفس السنة أرسل كثيرون من الأمراء والأشراف وأربع عشرة مدينة إمبراطورية احتجاجاً قالوا فيه: إنهم مستعدون أن يطيعوا الإمبراطور والمؤتمر في كل القضايا الواجبة والممكنة؛ ولكنهم لا يخضعون لأحد في ما يعتقدونه مخالفاً لكلمة الله وضميرهم. فسموا من ذلك بروتستانت أو محتجين، ومن هذا الوقت أطلق هذا الاسم على كل المسيحيين من غير اللاتين والكنائس الشرقية بفروعها. وهم يدعون أنفسهم غالباً إنجيليين ويدعون غيرهم تقليديين نسبةً إلى التقليد كما سترى. والبروتستانتية بمعناها اللغوي لا يخلو منها دين أو مذهب، ففي كل زمان ومكان أفراد وجماعات يحتجون على رسوم في الدين أو مذهب الذي ولدوا فيه قد ينجحون أو لا ينجحون، أما البروتستانت فقد نجحوا نجاحاً

لم يقدره أحد لهم فعددهم الآن يتجاوز مائتي مليون في الدرجة الأولى عددًا بعد اللاتين، وكل من انضم إليهم من الكنائس الشرقية، وفي الدرجة الأولى في الرقي وسعة الملك.

ثم إن البروتستانت وإن افرقت أكثر فرقهم في أمور أكثرها عرضية فهم مجمعون على أمور كثيرة، وإليك التفصيل في ما هم مجمعون عليه وما هم مختلفون فيه: أهم ما تجمع عليه أكثر فرق البروتستانت (عدا ما هم مجمعون عليه مع غيرهم مما يأتي بيانه):

أ- أن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد في كل ما يلزم للخلاص.

ب- أن المسيح هو المخلص الوحيد وليس بأحد غيره خلاص.

ج- أن الخلاص كله نعمة مجانية من الله.

د- أن الإيمان هو السبيل الوحيدة لنيل الخلاص.

هـ- أن الأعمال الصالحة هي ثمر الإيمان الحي فنعمل لأننا مخلصون

لا لكي نخلص.

والبروتستانت إجمالاً قسمان كبيران -الأول الايسكوبيليان أي الأسقفيون وهو الذين يقولون: إن درجات الأكليروس ثلاث: الأسقف والقسيس والشماس- الثاني البرسبتيريان أي القسوسيون وهم الذين ليس عندهم رتبة أساقفة. وأكثر فرق البروتستانت هذا القسم؛ فالأسقفيون مثلاً يجرون العبادة غالبًا بموجب كتاب صلاة أي صورة معينة تتلى وقت عبادة الجماعة. وأما العبادة العائلية والاجتماعات الأخرى الروحية فيتركونها لحرية القسيس أو من ينوب عنه. أما القسوسيون فالحرية

مفوضة للخادم في كل الأوقات. وعندهم بعض صلوات وإرشادات مكتبة لمساعدة القسيس في أحوال خصوصية.

على أن هذا النظام لا يعد جوهرياً فهذه الكنيسة الأنكليكانية وهي تجري عبادتها بموجب كتاب صلاة تقول في العقيدة ٣٤ «لا يلزم أن تكون التقاليد والطقوس في جميع الأماكن واحدة متساوية؛ إذ قد اختلفت في كل الأزمان ويصح تغييرها على مقتضى اختلاف المكان والزمان وعبادات الناس بحيث لا يرتب منها شيء مضاد لكلام الله ... وكل كنيسة تختص بأمة فلها سلطان أن تثبت وتغير وتبطل طقوسها ورسومها التي رتب بسلطان الناس فقط».

وكل الأسقفين والأكثرية العظمى من غيرهم يجرون السرين المعمودية والشركة ويعمدون الأطفال والبالغين الذين لم يعمدوا أطفالاً، أما بعض القسوسيين فلا يعمدون إلا البالغين ويسمون بالمعمدانيين، وبعضهم لا يجري السرين مطلقاً وهم المعروفون بالفرنديس أو الكويكرس.

يتفق البروتستانت مع غيرهم في أمور كثيرة جوهرية ويخالفونهم في أمور أخرى وإليك التفصيل: أهم الأمور الجوهرية التي يتفق فيها البروتستانت مع غيرهم:

يتفقون في قانوني الإيمان - أولاً القانون المعروف بقانون إيمان الرسل وهو يرجع إلى أواخر القرن الأول المسيحي بل قيل: إن الرسل أنفسهم وضعوه - ثانياً قانون الإيمان النيقاوي وضعه المجمع المسكوني الأول الذي التأم سنة ٣٢٥ في مدينة نيقية مع ما أضيف إليه في ما بعد سوى عبارة واحدة بخصوص انبثاق الروح من الابن أضيفت فيما بعد لا يقبلها الروم الأرثوذكس. ويوجد قانون إيمان ثالث مجمع عليه يسمى

قانون مار أثناسيوس ولكنه أقل شهرة وأقل استعمالاً من الأولين. ويمكن تلخيص الأمور الجوهرية التي يتفقون فيها في ما يأتي:

١- التوحيد والتثليث.

٢- الخلق والسقوط والفداء.

٣- تجسد الكلمة الأزلية المسيح ابن الله من مريم العذراء بالروح القدس وكل ما يتعلق بتاريخ فداء المسيح من ميلاده إلى مجيئه الثاني للدينونة.

٤- القيامة والدينونة.

٥- وجوب التبشير بالمسيح ودعوة الغير إلى الإيمان به.

٦- عدم تحريف الأسفار التي يتفقون على قانونيتها من الكتاب المقدس.

وأهم الأمور المختلف فيها سلطان الكتاب المقدس. ويعتقد البروتستانت أنه المرجع الوحيد المعصوم الذي يجب الرجوع إليه في عقائد الإيمان. ويعتقد غيرهم أن للكتاب والتقليد سلطاناً متساوياً، ومن هذا يدعوهم البروتستانت تقليديين. والتقليد عند المسيحيين كالتلمود عند اليهود والحديث عند المسلمين. وبعد فلا خلاف بين البروتستانت وغيرهم في عدد أسفار العهد الجديد إنما الخلاف في عدد أسفار العهد، فالبروتستانت لا يقبلون إلا الأسفار التي يقبلها اليهود وذكر عددها يوسفوس. وغيرهم يضيف إليها أسفاراً تسمى أبوكريفا وجدت في الترجمة السبعينية مضمونة إلى باقي الأسفار. ومع تسليم البروتستانت بلزوم المعجم وفائدتها فهم لا يحسبون لما تقرره قوة ولا سلطاناً إلا إذا

أثبت من الكتاب المقدس. أما المجامع عند الروم الأرثوذكس والمجامع والبابا عند البابويين فهم معصومون من الخطأ في ما يقررونه من عقائد الإيمان ويعتقد البروتستانت أن فرصة الخلاص تنتهي بالموت وبه يتقرر حال كل نفس إما في النعيم أو في الجحيم. ويتفق معهم في حال أهل الجحيم ويخالفون في حال أهل النعيم فعندهم مكان عذاب وقتي غير الجحيم يسمى عند البابويين المطهر وعند الروم الأرثوذكس عقالات الجحيم تذهب إليه الأنفس لتكفر عن ذنوب صغيرة، وتصرف فيه مدة تطول وتقصر بحسب عدد تلك الذنوب وصفتها، ويمكن تقصير هذه المدة بالصلوات والصدقات. يحصر البروتستانت الشفاعة وطلب الخلاص بالمسيح، وغيرهم يطلبهما منه ومن الملائكة والقديسين.

عند البروتستانت سران فقط هما المعمودية والشركة وغيرهم يضيف إليهما خمسة فيصير العدد سبعة والمضافة هي:

١- التثبيت عند اللاتين والموازنة، والميرون عند غيرهم.

٢- الكهنوت.

٣- الاعتراف للكاهن.

٤- الزواج.

٥- المسحة الأخيرة قبل الموت. أما الإفاضة في تعريف السر وفاعليته وما يحدث فيه وما يحدثه هو من التغيير، وفي سبب هذا الخلاف فإنها تخرجنا كثيرًا عن المقصد.

والبروتستانت يعترفون لله وحده وللشخص الذي أخطأوا إليه، والله وحده عندهم السلطان على مغفرة الخطايا. وغيرهم يوجب الاعتراف للكاهن وللكاهن سلطان مطلق على غفران الخطايا.

ولما كان البروتستانت في هذه الديار ثمرة الإرساليات نرى من الواجب أن نشير إلى الداعي إلى الإرساليات، فالداعي إليها أوامر الكتاب المقدس الكثيرة، وأهمها أمر المسيح الأخير الصريح «أذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس». وقد أطاع رسله أمره وتفرقوا في أنحاء العالم المعروف حيثئذ وليس لهم ما يستندون عليه أمام قوات هذا العالم سوى إيمانهم وثقتهم بوعده. وعدوا مخالفة أمره هذا جرماً عظيماً فقال الرسول بولس: «إذ الضرورة موضوعة عليّ فويل لي إن كنت لا أبشر». ولا يزال هذا التبشير من مميزات الكنيسة الحقيقية ففي العقيدة ١٩ الإنكليكانية «كنيسة المسيح المنظورة هي جماعة المؤمنين التي فيها يبشر بكلمة الله النقية».

وقد وجه البروتستانت قواهم إلى هذا الواجب حالما تمكنوا من تنظيم شئونهم، فتألفت الجمعيات هنا وهناك، وربما كان أقدمها جمعية المورافيين نسبة إلى مورافيا على ضفاف الدانوب، وتعرف بجمعية الإخوة المتحدين، وقد كانوا ولا يزالون في المقدمة بالنسبة إلى عددهم الذي لا يتجاوز ٣٠٠٠٠٠٠. وفي أواخر القرن الثامن عشر زاد عدد الإرساليات البروتستانتية وزاد نشاطها. وقد طلبت من أمين سر الجمعية (S.M.L) المستر هاردمان في القدس بعض إحصاءات لهذه الإرساليات فأسل آخر ما عرفه منها أعربه بالشكر قال: عدد إرساليات البروتستانت في العالم ٣٨٠٠، عدد المرسلين رجالاً ونساءً ٢٩٠٤٩ والمال الذي صرفته خمسة عشر مليون ليرة إنكليزية. «هذا عدا ما جمع في حقول الإرساليات نفسها

وصرف عليها أيضًا». وعدد الإرساليات في فلسطين ١٧ وعدد المرسلين فيها ١٦٠.

وعمل بعض هذه الإرساليات عام وبعضها خاص محصور في قارة أو مملكة أو إقليم أو دين أو مذهب أو رتبة من الناس أو الذكور أو الإناث أو الطب العام أو الخاص أو طبع الكتب أو نشرها أو التبشير مجردًا أو فتح المدارس فقط. وهذا الاختصاص في الغرب حتى في الأمور الدينية هو أساس نجاحه.

ومن المبادئ الأساسية لهذه الإرساليات أن تنظم المهتمين جماعات تشرع بإدارة شئونها بنفسها، وتسير نحو الاستقلال الإداري والمالي. ومنها عدم التدخل في سياسة البلاد التي يرسلون إليها، ووجوب إطاعة أوامر حكوماتها، والمحافظة على قوانينها ونظاماتها في كل ما لا يخالف الضمير بناء على قول المسيح: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وبناء على أوامر رسله المتعددة بالصلاة والطاعة للحكام؛ ومع ذلك فقد أوقعت السياسة الأوربية تهمة المداخلة في السياسة على المرسلين؛ لأنها استعملت الإرساليات على غير قصد من المرسلين جسرًا عبرت عليه إلى مقاصدها الاستعمارية فشوهت سمعة المرسلين.

ولقد كان من الطبيعي أن توجه الإرساليات أفكارها إلى هذه الديار مهبط الوحي ومهد المسيحية للإنعاش المسيحية وتبشير غير المسيحيين بها. وفي إحصاء بتاريخ سنة (١٩١٣) أن عدد الإرساليات في هذا القطر أكثر من ٣٠ أمريكية وإنكليزية وإسكوتلاندية وإيرلندية وألمانية ودانماركية ومورافية وأسوجية. ويقوم بأكثرها أفراد أو مدينة أو جماعة صغيرة، وأعمالها غالبًا محصورة في العواصم كالقدس وبيروت ودمشق أو بعض المدن والقرى كيافا وحيفا والناصرية وبيت لحم والخليل ورام

الله وصفد والشويات وبرمانا وبيت مري والشوير وشملان وبعلبك والنبك ودير عطية وغيرها. وليس بين كل هذه الإرساليات سوى إرساليتين عموميتين كبيرتين لهما طائفة منظمة بمجامع وقوانين وميزانية مالية مستقلة عن ميزانية الإرسالية، والأولى أمريكية قسوسية في الشمال، والثانية إنكليزية أسقفية في الجنوب.

إرسالية الشمال أمريكية قسوسية أسست سنة (١٨١٠). وفي سنة (١٨٢١) نزل أول مرسلها من ميناء يافا وشرعت بعملها في القدس وجوارها، ولكن قضت الأحوال أن ينحصر عملها في الجزء الواقع شمالي رأس الناقورة، وقام مرسلوها بمبادئ الإرساليات البروتستانتية بكل أمانة ونشاط وكان لهم اليد الطولى وفضل السبق في نشر العلم والمدنية لا بما عملوه فقط بل بتحريض غيرهم أيضًا.

ودائرة عمل إرسالية الجنوب من رأس الناقورة شمالاً إلى حدود مصر جنوباً، وهي إنكليزية أسقفية أعضاؤها من كنيسة إنكلترا المثبتة، أسست في لندن في ١٢ نيسان سنة (١٨٩٩) واسمها جمعية المرسلين الكنسية ويعبر عنها بالأحرف (C.M.L) وللإحاطة بعمل إرسالية فلسطين لا بد من ذكر لمحة من تاريخ الأسقفية الإنكليزية فيها. وفي سنة (١٨٤١) أسست أسقفية إنكليكانية في القدس بالاشتراك مع بروسيا. وكان من مبادئ المرسلين الأولية أن لا يشقوا من الطوائف الأخرى المسيحية طائفة بروتستانتية وخصوصاً من طائفة الروم الأرثوذكس التي يعتبرونها أم الكنائس؛ بل قصدوا أن يعملوا بالاتفاق مع رؤسائها لإنعاش المسيحية من الغفلة التي استولت على معظم مسيحيي الشرق؛ ولكن مقاومة هؤلاء الرؤساء وهيجهم طوائفهم على المرسلين وعلى كل من يقترب منهم، اضطرتهم بعد تردد طويل إلى تأليف طوائف. وقد دان بالمذهب البروتستانتية من كل الطبقات، وارتقى كثيرون من أولاد الفقراء

والفلاحين إلى أسمى ما يمكن الوصول إليه من المراتب؛ على أن تأثير المرسلين لم يقتصر على العدد القليل من البروتستانت العرب، بل عم القطر بل هم كانوا من أول عوامل الرقي.

إن لكل من الإرساليات المذكورة عمالاً وأفراداً متعلقين بها وعددهم بحسب سعة عملها؛ ولكن للإرساليتين السابقتين فقط طوائف بروتستانتية منظمة بجامع وقوانين وميزانية مستقلة عن ميزانية الإرسالية كما مر.

ليس لطائفة البروتستانت العرب كما مر قسوسية مشيخية، وليس لها كتاب صلاة تجري بموجبه عبادة الجماعة سوى بعض إرشادات مطبوعة ضرورية لإرشاد القسيس في بعض الواجبات؛ وهو مع ذلك غير مقيد بها. وتستعمل كتاب ترتيل فيه الآن (٤٣٢) ترتيلة بأنغام مختلفة غربية وبعض أنغام شرقية، وإنما العلامات الموسيقية كلها غربية. وهذا الكتاب مشترك بين سورية وفلسطين ومستعمل للعبادة في الكنيستين.

وعدد نفوس الإنجيليين في لبنان ١٠ آلاف نفس؛ بقي الكنائس الأخرى غير المشيخية منها كنيسة الفرندس في برمانا ورأس المتن والكنيسة المعمدانية في راشيا الوادي وجوارها والكنيسة الإنجيلية في دمشق للكنيسة المشيخية الاسكوتلاندية والكنائس الإنجيلية في جهات القلمون وهي تابعة للإرسالية الدانمركية ولها عدة مراكز في النبك ودير عطية ويبرود وصدد وغيرها.

أمّا طائفة البروتستانت العربية في فلسطين فهي أسقفية إنكليكانية تجري عبادتها بموجب كتاب الصلاة العامة المترجم عن الإنكليزية مع عقائد الدين التسع والثلاثين وكتاب الترتيل المشترك مع كنيسة سورية. رسم أول قسوسها الوطنيين سنة (١٨٧١) في الناصرة وكانت طائفة الناصرة في مقدمة كنائس فلسطين في إقامة الأوقات والسعي نحو

الاستقلال وكان أحد أفرادها عودة عزام المستوطن القدس في الربيع الثالث من القرن الماضي وقف أملاكه كلها لكنيسة القدس وأصبحت الآن ذات قيمة كبيرة، وتبعه غيره في الوقف على الكنائس. ويبلغ مجموع البروتستانت في فلسطين وشرقي الأردن نحو ثمانية آلاف إنسان.

وبعد فإن في العالم أجمع الآن حركتين متضادتين نعبر عنهما بال جذب والدفع، فبينما أنت ترى الشعوب تتحرك بدفع بعضها عن بعض فتتألف كتلاً متفرقة تجدها في نفس الوقت تنجذب وتتقارب وتتفهم وتسعى لتوحيد هذه الكتل أو ربط بعضها ببعض على الأقل، وعلى الرغم مما نجده من التباعد بحركة الدفع والتمركز نجد الناس يقرب بعضهم من بعض بحركة الجذب، والعامل الأقوى في حركة الجذب سرعة المواصلة وانتشار العلم، فسرعة المواصلة قربت الناس بعضهم من بعض فأخذوا يتفاهمون، والعلم جعلهم يحكمون العقل أكثر من العوظف فرأوا أن كثيراً من الفوارق إما وهمية أو عرضية أو مبالغ فيها. وما يجري في الدائرة البشرية الاجتماعية يجري في الدائرة الدينية. فعلى الرغم من بعد مسافة الفوارق الدينية والمذهبية نجد أهل هذه الأديان والمذاهب أكثر تسامحاً وأسرع سعيًا نحو الاتفاق، حتى في الأديان التي نراها على أعظم مسافة من البعد، فلا تكاد تمر سنة حتى يعقد مؤتمر الأديان يجتمع فيه نواب معظم الأديان الإلهية كالمسيحية والإسلام واليهودية وغير الإلهية كالبودية وغيرها. وقد عقد أول مؤتمر رسمي في ١٦ أيلول سنة (١٩٢٤) في سوق الغرب اجتمع فيه نواب الجهتين للسعي في زيادة الاتحاد وتوحيد النظام.

أصل السنة

لا يخفى أن الأحكام الشرعية التي علمت من الكتاب والسنة ثلاثة أقسام: الأول: الأحكام الاعتقادية وأصولها المجملة ستة الإيمان بالله

وبالملائكة وبالكتب وبالرسل وباليوم الآخر وبالقدر، ويقال لجميع هذه الأحكام دين الإسلام وهي ما جاء به جميع الأنبياء. وهذه وإن كانت في تعيينها مذاهب عديدة إلا أن ما عدا مذهب السنة باطل.

القسم الثاني: الأحكام العملية وهي عشرة: الفرض، الواجب، السنة، الاستحباب، الإباحة، الحرمة، الكراهة التحريمية، الكراهة التنزيهية، الصحة، الفساد. ولا يخلو فعل العاقل البالغ عن حكم منها، فالشرائع المتعلقة بأفعال المكلفين ثلاثة أنواع إجمالية: الأول: العبادات وهي عبارة عن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر الفرائض والواجبات. الثاني: المعاملات كالنكاح والطلاق والهبة والوصية والبيع والشراء والكفالة والوكالة. الثالث: العقوبات كالدية والكفارة والفدية والقصاص، وفي تعيينها مذاهب كثيرة إلا أنه تقرر فيها المذاهب الأربعة، وأصحابها أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، فما اتفق عليه هؤلاء الأئمة الأربعة هو حق وصواب، وما اختلفوا فيه يحتمل الخطأ والصواب؛ لأن كل مجتهد يخطئ ويصيب، والحق واحد لا يتعدد، وكل مؤمن مأمور باتباع مذهب منها إذا لم يكن بلغ مرتبة الاجتهاد، ويلزمه الاعتقاد بصواب متبوعه؛ إذ لا يجوز له تقليده إن اعتقد خطأه.

القسم الثالث: الأحكام الشرعية المتعلقة بأحوال القلوب، والمتكفل بذلك علم الأخلاق والتصوف. والقصد هنا بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة في القسم الأول. وينبغي أن نبين أولاً من هم أهل السنة والجماعة، ثم نذكر عقائدهم إذ ربما يظن بعض الناس أن كل من يطلق عليه اسم المسلم هو من أهل السنة والجماعة وليس الأمر كذلك، فإن أهل البدع والأهواء مخالفون لأهل السنة والجماعة، والحال أن فيهم من يعد من أهل ملة الإسلام، لذلك رأيت من اللازم أولاً بيان من هم أهل

السنة والجماعة، ثم بيان عقائدهم التي اتفقوا عليها، ولم أتعرض للمخالفين لهم ولا بذكر حجج الطرفين، وسرد المسائل التي وقع فيها اختلاف بين الأشعرية والماتريدية لما أن ذلك خارج عن موضوع الخطط؛ وإنما هو من خصائص كتب الكلام، فاقترت على أهم المسائل الاعتقادية التي يكلف كل مؤمن باعتقادها.

وقد ألف العلماء كتباً لبيان الفرق الإسلامية ومقالاتها كالشهرستاني وابن حزم وعبد القاهر البغدادي وغيرهم. إذا أطلق أهل السنة والجماعة يراد بها الأشعرية والماتريدية، أما الأشعرية فهم أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل من ذرية أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي الجليل، أخذ علم الكلام أولاً عن شيخه محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة وتبعه في الاعتزال حتى صار للمعتزلة إماماً، ثم رجع عن مذهبه وصنف كتباً في الرد عليهم، وأجمع على عقيدة الأشعري المالكية والشافعية وبعض الحنفية وفضلاء الحنابلة، ولم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سنن غيره أو على نصرته مذهب معروف فزاد المذهب حجة وبيانا، وليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتأليفه في نصرته. ولد سنة ستين ومائتين وتوفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

وأما الماتريدية فهم أصحاب الإمام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي نسبة إلى قرية بسمرقند، الحنفي المتكلم ناصر السنة وقامع البدعة ومحبي الشريعة، كان إماماً جليلاً مناضلاً عن الدين موطداً لعقائد أهل السنة قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم، وله مصنفات منها كتاب التوحيد وكتاب بيان وهم المعتزلة وكتاب تأويلات القرآن وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب.

وليس هو من أتباع الأشعري لكونه أول من أظهر مذهب أهل السنة كما ظن؛ لأن الماتريدي مفصل لمذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه المظهرين قبل الأشعري مذهب أهل السنة. وكانت وفاته بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

والحاصل أن كلاً من هذين الإمامين الجليلين أبي الحسن وأبي منصور لم يدعانا من عندهما رأياً ولم يشتقا مذهباً؛ إنما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أحدهما قام بنصرة مذهب الشافعي وما دل عليه، والثاني قام بنصرة مذهب أبي حنيفة وما دل عليه. وناظر كل منهما ذوي البدع والضلالات حتى انقطعوا.

ومما ينبغي أن يعلم أنه ليس بين هاتين الطائفتين اختلاف في أصول الدين؛ وإنما اختلفوا في بعض مسائل متفرعة عن الأصول لا تستلزم تضليلاً ولا تفسيقاً.

ثم إن عقائد أهل السنة والجماعة تنحصر في أربعة أركان هي مبنى الإيمان: إلهيات والصفات والأفعال والسمعيات.

(الركن الأول فيما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل) العالم بجميع أجزائه حادث وجد بعد أن لم يكن، وهو قابل للفناء وله صانع واجب الوجود لذاته ممتنع العدم بالنظر لذاته، واحد لا شريك ولا مثل له في ذاته وصفاته وأفعاله، قديم لا بداية له، أبدي لا نهاية له، متصف بصفات الكمال، منزّه عن سمات النقص، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا تحله الجواهر ولا الأعراض، ولا يحل في غيره ولا يتحد بغيره، ولا يقوم بذاته حادث، منزّه عن التحول والانتقال، استوى على العرش على الوجه الذي عناه وبالمعنى الذي أراده، استواء يليق بجلال

ذاته، وهو فوق سماواته فوق عرشه، مباين لخلقه لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بقدرته، ومع ذلك فهو قريب من كل موجود بل هو أقرب إلينا من جبل الوريد، وهو تعالى مرئي للمؤمنين بالأبصار في دار القرار، فيرونه لا في مكان ولا على جهة من مقابلة واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي والمرئي.

(الركن الثاني في العلم بصفاته تعالى) الله تعالى متصف بالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والحياة، وهي صفات له أزلية ونعوت له أبدية، فهو تعالى قادر على جميع الممكنات، وجميع الحوادث واقعة بقدرته تعالى، وقدرة الله على المقدورات كلها قدرة واحدة، يقدر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب، ومقدوراته تعالى لا تفتى.

وهو سبحانه يريد لأفعاله فلا وجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته، لا يقع شيء في العالم إلا بإرادته ومشيئته، فالخير والشر والطاعة والمعصية واقعة بإرادة الله تعالى وقضائه وقدره ومشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإرادته تعالى قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللاتقة بها على وفق سبق العلم الأزلي، والإرادة غير الأمر لأنه قد يأمر بالشيء ولا يريد، ويريد الشيء ولا يأمر به، ويريد الشيء ويأمر به، ولا يريد الشيء ولا يأمر به. وغير الرضا أيضاً فإن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضى به الله تعالى كالكفر الواقع من الكفار فإنه تعالى أراد ولم يرض به ولا يرضى لعباده الكفر، وليست عين العلم لأن العلم يتعلق بالواجب والمستحيل والجائز، والإرادة لا تتعلق إلا بالجائز.

وهو تعالى عالم بجميع الموجودات كلياتها وجزئياتها، ومحيط بكل المخلوقات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات، وعلمه واحد يعلم به جميع المعلومات على تفصيلها من غير حس ولا بدهاء ولا استدلال عليه، وعلمه قديم لم يزل عالمًا بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقات، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها؛ بل حصلت مكشوفة بالعلم الأزلي. وهو تعالى حي وحياته بلا روح ولا اغتذاء، وجميع الأرواح مخلوقة، والحياة شرط في العلم والقدرة والإرادة والرؤية والسمع، فمن ليس بحي لا يصح أن يكون عالمًا قادرًا مريدًا سامعًا مبصرًا.

وهو سبحانه سميع بصير يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بـُعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، لم يزل رائيًا لنفسه، وسامعًا لكلام نفسه، وأن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر، وأن كليهما غير الانكشاف بالعلم، بل لكل منها حقيقة يفوض علمها لله تعالى. وهو تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ليس بحرف ولا صوت هو به أمرناه مخبر وأن القرآن كلام الله غير مخلوق.

(الركن الثالث في الأفعال) الله تعالى لا خالق سواه وكل حادث في العالم حدث بقدرته وخلق لا محدث له غيره، وجميع أفعال العبادة اختيارية واضطرارية، مخلوقة له تعالى ومتعلقة بقدرته؛ وإنما الله خلق في العبد قوة تسمى الإرادة الجزئية وأقدر عبده على صرف هذه القوة إلى ما شاء من جزئيات الأمور والمنهيات باختياره، وهذا الصرف هو الذي يسمى بالكسب تارة وبالميل والجزء الاختياري تارة أخرى، ويسمى أيضًا بقدره العبد. وقد جرت عادة الله تعالى أنه لا يخلق القدرة على المعصية في أعضاء العبد حتى يصرف العبد إرادته الجزئية إليها، فإذا صرفها إليها

بأن مال قلبه وعزم عليها فهناك يخلق الله تعالى القدرة في أعضائه على فعلها فيفعلها، فقدرة العبد التي هي الميل المذكور مقارنة لإيجاد الله تعالى ليس لها تأثير في إيجاد الفعل بل مجرد مقارنة.

وهو تعالى لا يجب عليه شيء من فعل الأصلاح لعباده، ورعاية الحكمة والمصلحة في فعله، فله أن يعذب على الطاعات ويثيب على المعاصي، وأن يتلي عبده بضروب الآلام من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق، ولا يعد ذلك منه قبيحاً ولا ظلماً لأنه يتصرف في ملكه لا في ملك غيره، يفعل ما يريد، ولا حاكم عليه بل له الحكم، وإنما يثيب على الطاعة بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم، ويعاقب على المعصية عدلاً منه تعالى، وقد راعى الحكمة فيما خلق وأمر تفضلاً منه ورحمة ولا باعث له على الفضل.

بعثة الأنبياء ممكنة عقلاً وواقعة قطعاً، وفي وقوعها حكمة بالغة ورحمة للعالم شاملة، واحتياج الناس إلى الأنبياء كاحتياجهم إلى الأطباء، النبوة إنما تحصل بمجرد اصطفاء إلهي لا باستحقاق من المبعوث واجتماع شروط فيه، بل الله يختص برحمته من يشاء وهو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وقد أرسل الله تعالى رسلاً من البشر إلى البشر مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة، وأيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات المقرونة بالتحدي، وكلهم جاءوا بتوحيد الله تعالى والنهي على الشرك وإخلاص العبادة له تعالى، وهم صادقون فيما جاءوا به مصونون عن التحريف والتبديل، معصومون من كل نقص حسي أو

معنوي^(١) مبلغون أممهم جميع ما أمروا بتبليغه، وأولهم آدم وآخرهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إن الله سبحانه أرسل نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة بشيرًا ونذيرًا، وجعله خاتم النبيين فلا نبي بعده وأيده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الظاهرة، وأنزل عليه القرآن الكريم الذي هو له معجزة باقية إلى يوم الدين، فنسخ بشريته الشرائع التي كانت قبله إلا ما قرر منها، وفضله على سائر الأنبياء وجعل الشهادة له بالرسالة شطر الإيمان، وألزم الناس تصديقه في جميع ما أخبر به عنه، وأمره بتبليغ ما أنزل عليه فقال تعالى: {يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك} فبلغ صلوات الله وسلامه عليه الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة حتى أتاه اليقين.

إنَّ لله تعالى وملائكة هم عباد الله المكرمون ورسَل الله بينه وبين أنبيائه وأمناؤه على وحيه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يعلم حقيقتهم ولا عددهم إلا خالقهم، وهم أجسام لطيفة نورانية يرونا ولا نراهم بصورهم الأصلية.

(الركن الرابع في السمعيات) إن لهذه الدنيا أجلًا محدودًا فإذا جاء أجلها يتبدل نظام هذا الكون، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات، ويعيد الله تعالى الأرواح إلى الأجساد، ثم يجازي الله تعالى كل نفس بما كسبت إما بنعيم أبدي أو عذاب سرمدي، وجميع ما أخبر به الصادق من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين ووزن الأعمال، والمرور

(١) النقص الحسي يكون في الذات كالجذام والبرص والعمى والجنون؛ والمعنوي يكون في الصفات كدناءة الحرفة ودناءة النسب وكالمعاصي الكبائر والصغائر.

على الصراط، والشفاعة لمن أذن له الرحمن، جميع ذلك حق يجب الإيمان به.

الشيعة

الشيعة لفظ معناه الأتباع والأنصار يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، تقوُّك: هو شيعة وهما وهم وهن شيعة، وجمعه شيع وأشباع، ثم صار علمًا بالغلبة على أتباع علي بن أبي طالب عليه السلام.

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاته علي في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاته له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة. ولما سئل عن الأربع قال: الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب. قيل له: وإنها لمفروضة معهن قال: نعم هي مفروضة معهن. ومثل أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت وأبي أيوب الأنصاري وخالد بن سعيد بن العاص وقيس بن سعد عبادة وكثير أمثالهم. ومن أرادهم فليراجع كتاب الدرجات الرفيعة لابن معصوم.

عرف هؤلاء باسم شيعة علي، ثم غلب فأطلق فقيل لهم: شيعة. ذكر أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة في الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم على ما نقل في كتاب الروضات أن أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشيعة) وكان لقب أربعة من الصحابة وهم: أبو ذر وسلمان وعمار والمقداد، إلى أن أن أوان صفتين فاشتهر بين موالي علي عليه السلام. ومهما تكن منزلة هذه الرواية من الثقة فالأمر الذي لا خلاف أنه لما استقل الأمويون بالأمر وناهضوا الهاشميين

وأتباعهم تلك المناهضة الشديدة كان اسم الشيعة على إطلاقه علمًا على أتباع آل البيت.

أمّا ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعة عبد الله ابن سبأ المعروف بابن السوداء، فهو وهم وقلة علم بحقيقة مذهبهم. ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك، علم مبلغ هذا القول من الصواب.

لا ريب في أن أول ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيع له. وكان التشيع هناك ضعيف الحول ولكنه مكين في قلوب أهله، ثم استفحل أمره في العراق زمن خلافة عليّ عليه السلام. أما في الشام فالمعروف بين الشيعة في جبل عامل خلفًا عن سلف أن الذي دلهم على هذا المذهب أبو ذر الغفاري لما سُر إلى الشام ولا يزال في قرية الصرْفند (بين صيدا وصور) له مقام معروف باسمه اتخذ مسجدًا معمورًا وهو غير مسجد القرية الجامع، وفي قرية ميس الجبل له مقام آخر. وميس هذه قرية في جبل عامل على طريق القادم من دمشق. وروى الحر العاملي في كتابه أمل الأمل أن أبا ذر لما أخرج إلى الشام تشيع فيها جماعة ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوق في جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليوم. ثم ذكر رواية عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وقد سئل عن أعمال الشقيف فقال: أرنون وبيوت وريوع وتعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقًا.

وفي كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرئيل القمي رواية مسندة إلى عمار بن ياسر وزيد بن أرقم تدل على أنه كان زمن خلافة عليّ عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى أسعار أهلها من الشيعة،

وأسعار هذه قرية خربة بين مجدل شمس وجباتا الزيت، وهناك نهر يعرف بنهر أسعار.

المتاولة جمع متوالي مأخوذ من الموالاة وهي الحب، لموالاتهم أهل البيت واتباعهم طريقتهم. والظاهر أن تلقيبهم بهذا اللقب في جبل عامل لم يتقدم عن القرن الثاني عشر للهجرة؛ لأن كل المؤرخين قبل هذا القرن لم يعرفوا لهم هذا اللقب ولم ينبزهم به أحد منهم، وكانوا إذا أرادوا ذلك تجنبوا الشيعة وقالوا: الرافضة كما فعل المحبي في خلاصة الأثر؛ ولكن من تأخر عن القرن الحادي عشر لم يلزمهم بترك نبزهم به كما فعل المرادي في سلك الدرر، فإنه لم يذكرهم في جبل عامل إلا باسم المتاولة وفاقاً للشهرة في عصره.

وقد جاء في إحدى «السالنامات» التركية أن ابتداء ظهور المتاولة سنة (١١٠٠) للهجرة. وعلى الجملة إن هذا اللقب أطلق عليهم لما أظهروا وجودهم السياسي وخلعوا طاعة أمراء لبنان واجتمعوا جملة واحدة في جبل عامل تحت قيادة آل نصار الوائليين، وفي بعلبك تحت لواء بني حرفوش، وفي شمالي لبنان بزعامة المشايخ آل حمادة.

كانوا يومئذ (ينتخون) باسم بني متوال فعرفوا به واشتهر عنهم، ويدلنا على ذلك أن هذا اللقب لم يكن إلا للذين دخلوا في غمار تلك الفتنة فعرف به شيعة جبل عامل وبعلبك وشمالي لبنان، ولم يعرف لشيعة حلب وحمص وحماة، ولا لشيعة دمشق إلا الذين تديروا الصالحية وأطراف الميدان وهم من مهاجرة بعلبك وجبل عامل.

الشيعة في الشام هم في جبل عامل، وهو البلد الواقع بين صنفد جنوباً، ونهر الأولي شمالاً، وغور الحولة وما حاذاه إلى ارض البقاع

شرقاً، والبحر المتوسط غرباً، وفي مدينة بعلبك وأعمالها وزمنهم فيها قديم.

وفي أعمال حمص قرى قليلة لهم وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة، وفي أعمال إدلب قرى القوعة ونبل وغيرها وكلها شيعة، وفيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب في الزمن السالف. وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم. وفي دمشق ويرجع عهدهم إلى القرن الأول للهجرة، وفي أكناف حوران وهم من مهاجرة جبل عامل، وفي شمالي لبنان والمتن والبترون وهم من مهاجرة بعلبك، ولا يقل عدد نفوس الشيعة في الشام عن مائتي ألف من الإمامية.

معتقدات الشيعة، وهم فرقة من المسلمين، اعتقادات المسلمين العامة عينها ولكنهم في الأصول يخالفون أهل السنة بالإمامة، وهي عندهم رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص بحق النيابة عن النبي، وهي واجبة عقلاً على الله؛ لأنها لطف وكل لطف واجب عليه تعالى، ولذلك خالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلاً، والأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعاً.

ويجب عندهم أن يكون الإمام معصوماً، وانفرد بهذا الشرط الإمامية والإسماعيلية من الشيعة، وأن يكون منصوفاً عليه، وأن يكون أفضل أهل زمانه.

وإن الأئمة اثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب المنصوص عليه من الرسول صلى الله عليه وسلم، وآخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى عام (٢٦٠) في سر من رأى، وهو حي يرزق ولا يعلم الناس مقره وسيظهر في آخر الزمان في مكة المكرمة، وقد قال بقولهم هذا فريق من

أهل السنة. وأما القول بأنه يخرج من سرداب سر من رأى فلم يقل به أحد من الشيعة وإن نسبة إليهم من لا يعرف مذهبهم جهلاً بحقيقة الحال.

ويخالفون الأشاعرة في بعض صفاته تعالى؛ فالأشاعرة تقول في كونه تعالى متكلمًا: إن الكلام معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا شيء من أساليب الكلام وهو قديم. والشيعة والمعتزلة يقولون: إن الكلام قائم بالغير يراد من كونه متكلمًا فعل الكلام لا أن الكلام قائم به، ولذلك فالكلام حادث.

والأشاعرة تقول: إن أفعاله تعالى لغرض وإلا لكان ناقصًا مستكملًا بذلك الغرض. وعند الإمامية أن أفعاله معللة بالعلل والأغراض وإلا لكان عابثًا. والغرض عائد لغيره إما لمنفعة العبد أو لاقتضاء نظام الوجود ذلك الغرض.

والأشاعرة تقول: إن أفعال كلها واقعة بقدر الله وأنه لا فعل للعبد أصلًا. وقال بعضهم: إن للعبد من ذلك الكسب أي كونه طاعة أو معصية. وقال آخرون: إن العبد إذا صمم خلق الله الفعل العقيب التصميم وأنه تعالى فاعل لكل حسنًا أو قبيحًا. والشيعة إمامية أو زيدية يقولون بقدرة العبد واختياره وأنه ليس بمجبر على فعله، بل له أن يفعل وله أن لا يفعل وأن الفعل منسوب إليه وأنه يستحيل عليه تعالى فعل القبيح. وقالت الإمامية بوجوب اللطف عليه تعالى وهو ما يقرب من الطاعة ويبعد عن المعصية ولا حظ له في التمكين ولا يبلغ درجة الإلجاء.

وقالوا بجريان المسببات عن أسبابها فالشعب مثلًا شيء حادث عن الأكل أنه شيء يحدثه الله عند الأكل.

وقالت الأشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى.
وقالت الشيعة والمعتزلة باستحالتها مطلقاً.

وقالت الأشاعرة في الحسن والقبح بأنهما شرعيان أي أنه ليس في العقل ما يدل على الحسن والقبح، بما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه فهو قبيح، وقالت الشيعة الإمامية بأن الحسن حسن في نفسه يستحق صاحبه المدح، والقبيح قبيح بنفسه يستحق صاحبه الذم ولا يتوقف ذلك على حكم الشارع.

ويقولون: إن العدل صفة من صفاته تعالى واجبة الثبوت له. هذه أمهات المسائل الأصولية التي يخالفون فيها بعض فرق المسلمين كالأشاعرة، وربما وافقهم في أكثرها غيرهم كالمعتزلة. وأما في الفروع فلا تكاد تجد لهم قولاً مخالفاً لا يكون قائلاً به غيرهم من فرق المسلمين اليوم.

نعم انفردوا اليوم بالقول بالمتعة؛ وإن كان أثرها في العرب منهم قليلاً بل أندر من النادر، وهي متعتان متعة النكاح ومتعة الحج، فالأولى هي الزواج إلى أجل مسمى تحل عقده بانقضاء الأجل، وعلى الزوجة المتمتع بها بعد انقضاء الأجل أن تعتد العدة الشرعية فلا تنكح زوجاً غيره حتى تنقضي عدتها، ولا بد فيها من ذكر المهر والأجل، ولا توارث بينهما وبين الزوج للدليل الخاص إلا مع الاشتراط، ولكن الولد منها ولد شرعي لا فرق بينه وبين إخوته؛ وأما متعة الحج فهي الطواف الأخير المعروف بطواف النساء فلا تحل للمحرم النساء حتى يأتي به.

ومنها في الميراث مسألة العول والتعصيب فهم ينكرون العول، ويقول إمامهم جعفر بن محمد الصادق على أن الذي أحصى رمال عالج يعلم أن الموارث

لا تعول، ويجرون فيما جاء من ذلك على قاعدة من له الغنم فعليه الغرم.

ولا يقولون بالتعصيب بل يرثه أقرب الناس إليه، وطبقات الإرث في النسب ثلاث: الآباء والأبناء والإخوة والأجداد، والأخوال والأعمام. فالمتقدمة من هذه الطبقات تحجب ما بعدها، فإذا كان ذو فرض أخذ فرضه ورد الباقي على نفس الطبقة لا يتعدها سواء كان المردود عليه ذكراً أو أنثى.

فإذا مات الميت عن بنت وأب أخذت البنت النصف والآب السدس بالفرض ورد الباقي عليهما كل بقدر سهمه؛ لأنهما من طبقة واحدة، فلو لم يكن له أب بل وجد أو أخ كان الرد على البنت؛ لأنها من الطبقة الأولى والجد والأخ من الطبقة الثانية فهي أولى منه بآية وأولو الأرحام.

ويقولون بالجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء سفراً وحضراً ولكن التفريق أفضل.

وإذا قال القائل لزوجته: أنت طالق ثلاثاً فإن كانت جامعة لشروط الطلاق وقعت واحدة وإلا كان الطلاق باطلاً. وشرط صحة الطلاق أن تكون الزوجة طاهرة في طهر لم يواقعها الزوج فيه، وأن يكون الطلاق بشهادة ذوي عدل.

وتجتمع الشيعة في أيام عاشوراء فتقيم المآتم على الحسين بن علي شهيد كربلاء عليه السلام، وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة وأول من رثاه أبو دهيل الجمحي بقصيدة يقول فيها:

تبيت النشاوى من أمية نوماً وبالطف قتلنى ما ينام حميمها

والظاهر من سيرة ديك الجن الحمصي في كتاب الأغاني أن هذه الاجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه، ثم إن بني بويه أيام دولتهم عنوا بها مزيد العناية. ولا تزال إلى اليوم تقام في جميع أقطار الشيعة، وليست هي من الفروض كما يتوهم بل يستحبونها لأنها تصدر عن ولاء ومحبة. وقد تطرق بعض العجم فأبدعوا فيها بدعًا فيها يمقتها الله والناس من ضرب أنفسهم بالمدى وإسالة الدماء على أثوابهم وعمل ما يسمونه (الشبيه) وقد مقته العلماء من الشيعة ولم تدعن لهم به العامة في كثير من البلدان التي استحكمت فيها هذه العادة.

الباطنية

أطلق هذا اللقب على فرق خالفت الإسلام مدعية بأن لكل ظاهر باطنًا ولكل تنزيل تأويلًا. ولهم ألقاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم. فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وبخراسان التعليمية والملحدة، وهم يقولون: نحن إسماعيلية لأننا تميزنا من فرق الشيعة بهذا السم وهذا الشخص، ثم إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج، هذا ما قاله الشهرستاني. وقال عبد القاهر البغدادي: إن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى أسلافهم، ولم يجسروا على إظهاره خوفًا من سيوف المسلمين، فوضع الأعمار منهم أساسًا من قبله صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي عليه الصلاة والسلام على موافقة أساسهم. ولما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت أيضًا لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس.

وذكر أنه خرج منهم أناس بالبحرين والقطيف والأحساء ومنهم من ظهر في طريق الحجاز واستولى على مكة، ومنهم من ظهر بالقيروان واستولى باتباعه على بلاد المغرب، ومنهم من استولى على هجر، ومنهم من ظهر باليمن وقتل الكثير من أهلها، ومنهم من خرج بالشام وهو أبو القاسم بن مهرويه، وأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسياً أولاً. ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحرّان، واستدل على ذلك بأن حمدان قرط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية. واستدل على ذلك أيضاً بأن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم. والباطنية أيضاً لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم، بعد إحلافهم إياه على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم. قال عبد القاهر: الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع. والأرجح أن المحور الأعظم الذي تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك والسلطان، وهي أشبه من بعض الوجوه بالطريقة الماسونية.

وعلى الجملة فإن منشأ هذه المذاهب خلافة علي بن أبي طالب، وطلب شيعته باسمه الملك فغالوا فيه مغلاة عظيمة حتى أخرجهم بعضهم عن البشرية. وقد كان أكثر أهل الشام في القرون الثلاثة الأولى للإسلام على ما يظهر من مذاهب النصارى، والمسلمون أقل منهم. ولقد انتهى الحال بجميع القبائل القديمة في الشام مثل بني كلاب وبني جذام وبني عاملة أن دانوا بالإسلام ولم يتخلف عنهم بادئ بدء سوى تنوخ في حلب وتغلب في شمالي شرقي تدمر. ولما مرّ السائح ويليالد في القرن الأول للهجرة بحمص كانت نصف مسلمة وقويت حركة الإسلام في القرون التالية لما سكنها العباس من قواد المروانيين في خمسين من أولاده.

وكانت الشام في الإسلام توالي عليًا وأصحابه تارة وتوالي غيره أخرى. وكان أهل حلب سنية حنفية حتى قدم الشريف أبو إبراهيم الممدوح فصار فيها شيعية وشافعية. وأتى صلاح الدين وخلفاؤه فيها على التشيع كما أتى عليه في مصر. وكان المؤذنون في جوامع الشهباء يؤذنون بحي على خير العمل. وحاول السلجوقيون مرات القضاء على التشيع فلم يوفقوا إلى ذلك. وكان حكم بني حمدان وهم شعية من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيع في الشمال. ولا يزال على حائط صحن المدفن الذي في سفح جبل جوشن بظاهر حلب ذكر الأئمة الاثني عشر وقد خرب الآن. وفي سنة (١٤١) ظهر في حلب قوم يقال لهم: الراوندية خرجوا بحلب وحيران وكانوا يزعمون أنهم بمنزلة الملائكة، وصعدوا تلاً بحلب فيما قالوا ولبسوا ثيابًا من حرير وطاروا من التل فكسروا وهلكوا.

وصف المقدسي مذاهب الشام في القرن الرابع للهجرة فقال: إن السامرة فيه من فلسطين إلى طبرية ولا تجد فيه مجوسيًا ولا صابئًا، مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة. وأهل طبريا ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعية ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم خفية، وبيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوانات ومجالس ولا ترى به مالكيًا ولا داوديًا، وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث، والفقهاء شفعوية وأقل قسبة أو بلد لبس فيه حنفي، وربما كانت القضاة منهم قال: واليوم أكثر العمل مذهب الفاطمي.

ووصف ابن جبير المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس فقال: وللشيعية في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم، وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الإمامية والزيدية وهم يقولون بالترفضيل خاصة. ومنهم الإسماعيلية

والنصيرية يزعمون الإلهية لعلّي رضي الله تعالى عنه. ومنهم الغرابية وهم يقولون: إن عليًا (رض) كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب، وينسبون إلى الروح الأمين عليه السلام قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً. إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء. قال: وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالثبوية سنيون يدينون بالفتوة ويأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحزّمونه سراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ قسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم. وشأنهم عجيب في الأنفة والاتلاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته الرد على النصيرية أيام استولى هؤلاء على جانب كبير من الشام: إن للقرامطة في معاداة الإسلام وقائع مشهورة وكتباً مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين وقد قتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وجندهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى النصارى على ثغور المسلمين، وبسببهم استولى النصارى على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. واتفقوا بعد صلاح الدين ونور الدين مع النصارى فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد. وقال: إن لهم ألقاباً معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحدة وتارة يسمون القرامطة وتارة يسمون الباطنية وتارة يسمون الإسماعيلية وتارة يسمون النصيرية وتارة يسمون الخرمية وتارة يسمون المحمرة. وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم. وهم كما قال العلماء فيهم، ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض. وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من

الأنبياء والمرسلين لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولا بشيء من كتب الله المنزلة لا التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن، ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه ولا بأن له ديناً أمر به، ولا أن له داراً يجزي الناس فيها على أعمالهم في غير هذه الدار، وهم يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة تارة وعلى أقوال المجوس الذين يعبدون النور. وقال: إن إخوان الصفا ونحوهم هم من أئمتهم وينكرون على الرسل ودعوى أنهم من جنسهم طالبون للرئاسة، فمنهم من أحسن بطلبها ومنهم من أساء في طلبها حتى قتل، ويجعلون محمداً وموسى من القسم الأول والمسيح من القسم الثاني ويستهزئون بالصلاة والزكاة والصوم والحج ... إلخ اهـ.

الإسماعيلية

هم القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل، انتقلت إليه بعد أبيه دون أخيه موسى الكاظم. وهم يوافقون الإمامية في سوق الإمامة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ثم يعدلون بها عن موسى الكاظم الذي هو الإمام عند الإمامية إلى إسماعيل هذا. ثم يسوقونها في بنيه فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد أمير المؤمنين علي إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم إلى ابنه إسماعيل الذي تنسب إليه هذه الفرقة بالنص من أبيه، ثم يقولون: إنها انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم إلى ابنه محمد الحبيب، ثم إلى ابنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وهو جد الخلفاء الفاطميين بمصر، ثم إلى ابنه العزيز بالله أبي منصور نزار، ثم إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي، ثم إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم معد خامس

خلفائهم بمصر. ومن هاهنا افرقت الإسماعيلية إلى فرقتين مستعلوية ونزارية؛ فأما المستعلوية فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر بالله إلى ابنه المستعلي بالله أبي القاسم ثالث خلفائهم بمصر، ثم إلى ابنه الأمر بأحكام الله أبي علي منصور إلى آخر من جاء بعدهم وهو حادي عشر خلفائهم بمصر. وأما النزارية فإنهم يقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه نزار بالنص من أبيه المستعلي، ثم الإسماعيلية في الجملة من المستعلوية والنزارية يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية تبعاً لإمامهم إسماعيل المذكور، وكان يسمى صاحب الدعوة الهادية - وفي القرن التاسع كانوا يسمون في ديوان الإنشاء بالقصاد وبين العامة بالفداوية- وهو يرون أن الأرواح مسجونة في هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية، وأن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية.

وذكر في العبر أن منهم من يدعي ألوهية الإمام بنوع الحلول، ومنهم من يدعي رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ والرجعة، ومنهم من ينتظر مجيء من يقطع بموته، ومنهم من ينتظر عود الأمر إلى أهل البيت. ويتفق المستعلون والنزارية في بعض المعتقدات ويختلفون في بعضها. ولدعاة الأئمة المستورين عندهم مكانة عظيمة لا سيما الداعي القائم بذلك أولاً وهو الداعي إلى محمد المكتوم أول أئمتهم المستورين، فإن له من الرتبة عندهم فوق ما لغيره من الدعاة القائمين بعده. واشتهر من دعائهم رمضان وابنه ميمون وعبد الله القداح بن ميمون، اطلع هذا على أسرار الدعوة من أبيه وسار من نواحي أصفهان إلى الأهواز والبصرة وسلمية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت. ثم أنشأ ابنه أحمد فأرسل هذا أحد دعائه إلى اليمن وإلى المغرب. ومن نسب أحدًا من هؤلاء الدعاة إلى ارتكاب محظور أو احتقاب إثم فقد ضل وخرج عن

جادة الصواب عندهم، ويرون تخطه من مالا على الإمام عبيد الله المهدي أول أئمتهم القائمين ببلاد المغرب وارتكابه المحذور وضلاله عن طريق الحق، وكذلك من خذل الناس عن أتباع القائم بأمر الله بن عبيد الله ثاني خلفائهم ببلاد المغرب أو نقض الدولة على المعز لدين الله أول خلفائهم بمصر، ويرون ذلك من أعظم العظائم وأكبر الكبائر.

ومن أعيادهم العظيمة الخطر عندهم يوم غدِير خُم (غِيضة بين مكة والمدينة على ثلاثة أيام من الجحفة) وسبب جعلهم له عيدًا أنهم يذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل فيه ذات يوم فقال لعليّ ((اللهم من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار)). ومن أكبر الكبائر عندهم وأعظم العظائم أن يرمى أحد من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيما الأئمة بكبيرة، أو ينسبها أحد إليهم أو يوالي لهم عدوًا أو يعادي وليًا. ويقولون إن الإمام منهم لا يموت إلا وقد خلف ولدًا ذكرًا منصوًا عليه.

وأصل هذه الفرقة كانت بالبحرين في المائة الثانية وما بعدها، ومنهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حيث ثم ظهروا بأصبهان في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هنالك بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وبالملاحدة لأن مذهبهم كله إلهاد، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة فيما حول طرابلس كمصيف والخوابي والقدموس والمرقب والعليقة والمينقة والكهف والرصافة وغيرها. وهم يعظمون راشد الدين سنان؛ وهو رجل كان بقلاع الدعوة وانتهت إليه رياستهم في زمن صلاح الدين.

ولما افترق الإسماعيلية إلى مستعلوية ونزارية أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية عملاً بدعوة ابن الصباح، وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه. روى هذا الفلقشندي وقال ابن ساعد: ويلقب الإسماعيلية بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة، ويرون أن في كل دور سبعة أئمة، إما ظاهرون وهو دور الكشف، وإما مختفون وهو دور الستر، ولا بد من إمام، إما ظاهر وإما مستور؛ لقول أمير المؤمنين رضي الله عنه: لن تخلو الأرض عن قائم لله بحججه، ويلقبون أيضاً بالباطنية لقولهم: إن لكل ظاهر باطناً، وبالتعليمية لقولهم: إن العلم بالتعلم من الأئمة خاصة، وربما لقبوا بالملاحدة لعدوهم عن ظواهر الكتاب والسنة لأنهم يتأولون سائر النصوص، وعندهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه وليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية اهـ.

وذكر كتاب جلبي أنه كان للفداوية الذين اشتهروا في زمن الظاهر بيبرس - هكذا كانت العامة تسمي الإسماعيلية - من طرابلس إلى صيدا إلى حلب على الساحل حتى حوران سبعون قلعة أهمها قلعة صهيون. وقد ذكر مؤرخو حلب أنه جاء إلى جبل السماق سنان بن سلمان بن محمد أبو الحسن البصري صاحب الدعوة النزارية ومتولي الحصون الإسماعيلية، وكان أديباً فاضلاً عارفاً بعلم الفلسفة وله شعر حسن وكلام منشور جيد، وتمكن في الحصون وانقادت إليه الطائفة الإسماعيلية ما لم ينقادوا إلى غيره.

ويقضي مذهبهم على ما قال هوار في المعلمة الإسلامية بأن الله لا صفات له ولا تدركه العقول ولا تفهمه الأبواب ولم يخلق العالم مباشرة؛ بل تجلت إرادته في أمره وهو العقل العام وفيه تختفي جميع الخصائص

الإلهية وهو الله المتجلي. وإذا كان لا يُصلي لكائن لا يدرك فإن الصلاة تتجه نحو صورتها الخارجية وهي العقل الذي هو حقيقة معبود الإسماعيلية، فكما أنه لا سبيل إلى معرفة الله بل يعرف العقل فقط فهذا العقل يطلق عليه أسماء الحجاب والمكان والأزل والعقل والأول. والعقل يخلق الروح العام الذي هو الجوهر في الحياة، وإذا كانت حياة العقل بالعلم وهو ناقص من هذا النظر فيرمي بالضرورة إلى تحقيق الكمال. ومن هنا تنشأ حركة بمعنى آخر عن حركة أخرى تتولد منها. الروح تخرج المادة الأولى التي تتألف منها الأرض والكواكب وهي غير عاملة بل تتجلى في أشكال تنطوي فيها الأفكار على العقل. وهناك كائنان ضروريان وأصليان وهما الأمد والزمان، والكواكب والعناصر نتيجة لازمة من عمل هذه المخلوقات الخمسة مشتركة. ويُفسر ظهور الإنسان بالضرورة التي يشعر بها الروح العام في إحراز العلم الكامل حتى يرقى إلى طبيعة العقل العام ومتى جرى الوصول إلى هذه الغاية تبطل كل حركة. وللخلاص يجب على المرء تحصيل العلم الذي لا يتأنى أن يأتي إلا من تجسد العقل على هذه الأرض ويتجسد ذلك في الرسول وخلفائه والأئمة.

ويسمى العقل المتجسد «الناطق» والروح المتجسد «الأساس» والأول هو الرسول الذي يتجلى فيه الكلام الموحى، والثاني هو ترجمان هذا الكلام بما يحوى من المعاني التي تُثول. والمبادئ الثلاثة الأخيرة هي الإمام والحجة، الذي يبرهن على رسالة الأساس، والداعية. وكان محمد الناطق وعلي الأساس.

والذين يرخص لهم بالاطلاع على أسرار الدين هم طبقات كانوا أولاً سبعة ثم صاروا تسعة، ويبدأ الداعية مع من يريد تلقيه أسرار الدعوة بأن يضع له مشكلات في صعوبة فهم الشريعة وهي الطريقة يجرى عليها

الباطنية عامة، ولا يزال به حتى يذكر له أن هذه المشاكل قد حلت على أيسر وجه بتأويل القرآن ومعرفة رموزه. وللحساب المستخرج من قيمة الحروف العددية شأن كبير. ومتى اقتنع المدعو بقوة البراهين التي أوردها له الداعية يستحلفه بأن لا يبوح بأدنى سر من الأسرار التي سيفضي بها إليه، ويعلمه بأن الوسطة للنجاة أن يخضع خضوعاً أعمى لأوامر الإمام الروحية والزمنية. وجمهور المؤمنين بهذه الدعوة ما كانوا يقفون على أكثر من الدرجة الأولى أو الثانية من الأسرار، والدعاة يصلون إلى الدرجة السادسة إلا قليلاً. ولا يبلغ الدرجة العالية إلا بعض الممتازين. وهذا أشبه بتعاليم الشيعة والمتصوفة في تعيين درجة الإنسان الكامل.

والجنة معناها مجازاً حالة النفس الواصلة إلى كامل العلم، وجهنم معناها الجهل، وما من نفس يحكم عليها بالخلود في جهنم على الأبد، بل تعود إلى الأرض بالتناسخ حتى تعرف إمام الزمان وتأخذ عنه علوم الدين، والشر لا بقاء له ولا بد من زواله يوماً بتمثل كل الموجودات في العقل العام تمثلاً تدريجياً، ومع ما اشتهر عن الإسماعيلية من القتل يجب أن نذهب إلى أن ما اجترحوه لم ينشأ عن عقيدة لهم؛ بل يجب أن ينظر فيه إلى الإفراط الذي عرف به رؤساؤهم في نيل السلطة السياسية. وقال رسو من السياح: إن من عرفهم من الإسماعيلية هم على جانب عظيم من الكرم ولطف الأخلاق، وقلما يحبون التنقل ويعملون في أرضهم ويتمسكون بأهداب دينهم الذي يخالف مذهبهم القديم كل المخالفة، وهم أشداء الحاجة خاضعون لزعمائهم. انتهى قول هوار.

ولم يعرف الزمن الذي نزل فيه الإسماعيلية بعض أرجاء الشام إذ لم يجر لهم ذكر قبل أوائل القرن الخامس للهجرة. وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ وهما من دعاة الإسماعيلية وأمثالهما من العجم أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام الملك رضوان بن تتش السلجوقي

صاحب حلب الذي أغضى عنهم وأراد اتخاذهم حزبًا له فقبل دعوتهم على ما قيل، واستمالوا إليهم خلقًا كثيرًا بسرمين والجوز وجبل السماق وبني عليم وجعل لهم في حلب دار دعوة، ولم يلبثوا أن اغتالوا قي جامع حمص (٤٩٦) عمه جناح الدولة وصاحب حمص، تولى ذلك ثلاثة من العجم يلبسون لباس الصوفية بينما كان يتهاى لغزوة صنجيل أمير طرابلس من الصليبيين لرفع الحصار عن حصن الأكراد. ولم يلبث هذا الطيب المنجم أن قضى نجه عاهدًا بالدعوة إلى رفيقه أبي طاهر الصائغ. استولى الإسماعيلية على أفامية من الصليبيين ثم استرجعها هؤلاء منهم (٤٩٨) ووضع السيف في الإسماعيلية بحلب سنة (٥٠٧) و(٥٠٨) كما وضع فيهم في دمشق سنة (٥٢٢) (خطط الشام ج ١ وج ٢) وكذلك كان حالهم في الباب من عمل حلب. قال ابن جبير: فداخلت أهل البلاد الحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم. وقال: إن الإسماعيلية يبذلون الأنفس دون إمامهم سنان وحصلوا من طاعته وامثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى. وفي تلك السنة أيضًا قتلوا برق بن جندل أحد مقدمي وادي التيم. وفي سنة (٥٧١) حاول أحد الإسماعيلية من العجم اغتيال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فأنجاه الله وأغضى الطرف عنهم. وفي سنة (٥٨٨) قتل الإسماعيلية كونراد أمير صور، وبعد مدة قتلوا ريموند بن بويمند الرابع المعروف بالأعور أمير أنطاكية من الصليبيين قتلوه في الكنيسة، وفتح الظاهر بيبرس والتار قلاعهم وخضعوا بعد ذلك لمماليك مصر.

وكان للإسماعيلية في بلاد العجم وقائع عظيمة وهم الذين قتلوا الوزير نظام الملك في بغداد وغيره من رجال الإسلام حتى ضاقت بهم الصدور، وقد سموا أوائل دخول الصليبيين إلى الشام بالحشاشين أو

القتلة (Les assassins)؛ لأن رؤسائهم كانوا قتل يعطون الحشيشة لمن يريدونه على قتل أحد خصومهم السياسيين. وكان الصليبيون يطلقون على رئيسهم شيخ الجبل. وقد نالوا من الصليبيين كثيرًا كما نالوا من أمراء المسلمين وهم جمعية سياسية ترمي إلى إقامة مُلك، وما كان هذا القتل منهم عن باعث مذهبي بل سياسي؛ على أنهم أخافوا رجال السياسة في هذه الديار وهي في أشد أوقات ضيقها زمن الحروب الصليبية وحروب التتار. ويبلغ عدد الإسماعيلية اليوم في الشام نحو خمسة وثلاثين ألفًا منهم جماعة في سلمية وفي قلاع الدعوة في جبل النصيرية. ومن الإسماعيلية عشرات ألوف في العجم والهند والأفغان وعُمان ومسقط وزنجبار وإفريقية الشرقية، وإسماعيلية هذه الديار يجنون الزكاة كل سنة ويرسلونها إلى أمامهم أعاخان في الهند، أما سائر الإسماعيلية فليسوا مرتبطين به. وقد ذكر بعض أعيانهم أن الإسماعيلية اليوم يقولون: إن كل زمن لا يخلو عن رجل من السلالة الطاهرة يسمونه إمامًا واعتباره اعتبار علمي ديني خالٍ من كل غرض سياسي.

النصيرية أو العلوية

قال القدماء: هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم يدعون ألوهية علي رضي الله عنه مغالاةً فيه ويزعمون أن مسكنه السحاب وإذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن ويقولون: إن الرعد صوته والبرق ضحكته، وهم من أجل ذلك يعظمون السحاب، ويقولون: إن سلمان الفارسي رسوله، وإن كشف الحجاب عما يقوله من أي كتاب بغير إذن ضلال، ويحبون ابن ملجم قاتل علي ويقولون: إنه خلص اللاهوت من الناسوت ويخطئون من يلعنه. وإن لهم خطابًا بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم ولا يذيعه ولو ضرب عنقه، وهم يخفون مقالتهم من أذاعها فقد أخطأ عندهم، ولهم اعتقاد في تعظيم

الخمير ويرون أنها من النور ولزمهم من ذلك أن عظموا شجرة العنب التي هي أصل الخمير حتى استعظموا قلعها. ويزعمون أن الصديق وأمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين عثمان تعدوا على عليٍّ ومنعوه حقه من الخلافة.

وقال المحدثون منهم أنفسهم على ما ذكره صاحب تاريخ العلويين: إن النصيرية رجع لهم اسمهم القديم بعد انتهاء الحرب العامة (١٩١٨م) وسميت العلوية وكانت محرومته مدة (٤١٢) سنة أي من قتال الاتراك للعلويين وإن اسم العلويين الذي كان يطلق على طائفتهم دثر عدة قرون^(١) وسمى الموجودون باسم الجبل، ويظن بعضهم أن اسم النصيرية هو نسبة للسيد أبي شعيب محمد بن نصير البصري النميري؛ مع أن الأصح هو لأنه تغلب اسم الجبل عليهم وأصبحت كلمة النصيري أشنع كلمات التحقير.

وقال: إن قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم}، معناه كمال الدين وكمال الدين هو ولاية عليٍّ، وهذه هي الحكمة المقصودة من نزول القرآن بالتدريج.

ويقول العلويون: إنه لما أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتومًا وخفيًا، ولذلك بقي إلى هذا اليوم مكتومًا بخصوصيته، وبتعبير أصح إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام وإعلانها مضر به؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر المؤمنين بولاية علي وبذلك كمل الإسلام، ولكنه بقي حريصًا على كتمان البقية، ولذلك

(١) أجمع المؤرخون ومن كتبوا في الملل والنحل أن النصيرية عرفوا بهذا الاسم في القرن السادس والسابع وبعده، فدعوى أنه كان يطلق عليها اسم العلويين وحرّم عليهم أربعة قرون فيها نظر.

كان كتمان البقية من كمال الإسلام أيضًا. وهذا هو تعليل تكتم العلويين في عقيدتهم. وهم يقولون أيضًا: إن بني هاشم كانوا يعرفون في زمن النبي أحكامًا ما كان يعرفها الأمويون، وإن أهل البيت تعلموا علومًا لم يسمعها غيرهم. وهنا مبدأ أسرار العلويين. ومن جملة أسباب تكتم العلويين أن بيعة غدير خُتم لم تكن إلا إفشاء لبعض حقوق أهل البيت والأمر باتباعها واحترامها.

وقال: إن السلطان سليمان العثماني لما فتح الشام استدعى عشائر تركية من الأناضول إلى خراسان وقدرها تسعون ألف خيمة؛ أي أكثر من نصف مليون تقريبًا وأسكنهم في القلاع في جبال النصيرية والمواقع الغنية المرتفعة منه، ولم يمض أكثر من خمسين عامًا حتى انقرض الأتراك في المنطقة الضيقة التي لم تكن حاصلاتها تكفي سكانها الأصليين، ولم يبق من الأتراك سوى خمسة عشر ألفًا وهم اليوم في البائر والبوجاق وقليل منهم في الساحل، حافظوا على جنسيتهم ولسانهم، ومن نزل منهم أرجاء حماة وحمص تغلبت عليه العربية.

وليس بين العلويين اختلاف في المذهب بل تفرقوا عشائر وأفخاذًا؛ فمنهم الكلبية وهي من أكبر العشائر والنواصر والجهينية والقراحلة والحلقية والرشاونة والشلاهمة والرسالنة والجردية والخياطية والبساترة والعبدية والبراعنة والفقاروة والعمامرة والحدادية وبنو علي والبشالوة والياشوطية والعتارية والمتاورة والحلبية والخزرجية والسوارخة والنيلاية والسرانية والصورامة والمهالبة والدرأوسة والمحارزة والبشارغة والجواهرية والسواحلية والأنطاكيون والأطنويون، والنسبة في هذه الأسماء إما إلى أشخاص منهم معروفين عندهم أو إلى قرى ومدن معروفة في أرضهم وغيرها.

وقال أيضاً: ليس للعلويين ديانة خاصة أو مذهب خاص كما يظن بعضهم، بل إن العلويين مسلمون شيعيون جعفريون، لا تفرق بينهم وبين سائر الجعفرية قيود دينية أو اجتهادات علمية، ويعتقدون أن الأئمة الاثني عشر هم معصومون من الخطايا، وإن أقوال الأئمة دلائل قطعية، ولا يمكن أن يخالف الإمام القرآن والأحاديث ولا يحق لأحد أن يتول القرآن، ولا أن يفرق بين محكمه ومتشابهه سوى أهل البيت، ولا تنفع عند العلوي القواعد الصرفية والنحوية أو الأصولية في استخراج الأحكام الشرعية؛ بل كل ذلك من جملة حقوق أهل البيت، وإن العلويين يمتازون على بقية الجعفرية أي الاثني عشرية بانتسابهم في الآداب الدينية إلى الطريقة الجنبلائية، وهذا الانتساب هو الذي أدى إلى افتراقهم عن بقية الاثني عشرية. ويرى المؤلف أن يتحد العلويون والشيعية المتأولة والإسماعيلية، وليس بين هؤلاء وبين العلويين سوى الافتراق الخاص في اعتبار الأئمة بعد جعفر الصادق.

وقد سألنا الأستاذ الشيخ سليمان أحمد من علمائهم فأجاب معتذراً عن التوسع في وصف مذهبهم وختم بقوله: أمة توالى عليها النوائب السياسية والاجتماعية خمسة أجيال فأخملتها أي إخمالت، وانزوى علماؤها وصلحاؤها وعات الجهل في عشائر فساداً، ليس من السهل الكتابة عنها، وليس بالهين ضلال التاريخ، وقل من جرى في ميدانه فلم يعثر. لا فرق بينهم وبين الإمامية إلا ما أوجبه السياسة والبيئة وعادات العشائر التي توارثها سكان الشام، أكثر الناس اختلافاً، وأقلهم اتئلاً؛ إذ شيخ مذهبهم الذي ينتمون إليه (الخصيبي) من رجال الإمامية تقرأ ما له وما عليه في كتب الرجال؛ إنما لهم طريقة كالتقشبندية والرفاعية وغيرهما من طرق الصوفية بالنسبة إلى أهل السنة. وهذا مصدر التقولات الباطلة

عليهم، وما أُبرئ جهلتهم من كل ما يقال، ولكن أشهد بالعرض والتغريض على غالب المؤرخين الذين كتبوا عنهم اهـ.

ويسكن النصرية أو العلويون اليوم في جبال اللاذقية وطرابلس وحماة، ومنهم فئة قليلة في دمشق وصالحيتها وفي قرى عين فيت وزعورا وغجر في الحولة، وعدد العلويين اليوم أكثر من مائتي ألف. وقد استعملوا العنف معهم في أكثر الأدوار السالفة فنفروا، وقد كان الظاهر يبرس في القرن السابع أمر أن تبنى لهم جوامع في قراهم فبنوا في كل قرية جامعًا وما كانوا يدخلونها على عهد ابن بطوطة في القرن التاسع؛ بل كانت حظائر للغنم وإصطبلات للدواب، وأمر السلطان قلاوون أيضًا أن يبنى جامع في كل قرية من قرى النصرية، وهكذا فعل عبد الحميد الثاني من العثمانيين فبنى لهم جوامع لم يلبثوا أن خربوها وأهانوها. وشأن العلويين شأن سائر الطوائف الإسلامية الصغرى كلما زادوا علمًا وتربية رجعوا إلى الأصول الصحيحة، وفيهم كرم وشمم وشجاعة ومكارم أخلاق.

الدروز

لما طمع الحاكم بأمر الله الفاطمي سادس خلفاء الفاطميين أو العبيديين بمصر في دعوى الربوبية، أخذ يمهد لذلك المقدمات ولقب نفسه الحاكم بأمره وأمر الخطباء بأن يقرءوا بدل البسملة (باسم الله الحاكم المحيي المميت)، وفي رواية أنهم كتبوا باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم. فلما أنكروا عليهم كتبوا: بسم الله الحاكم الرحمن الرحيم فجعلوا في الأول الله صفة للحاكم وجعلوا في الثاني العكس. وأنشأ يدعي علم المغيبات، وكان من دعائه رجلان عجميان من دعاة الباطنية يقال

لأحدهما محمد بن إسماعيل الدرزي^(١) المعروف بنشتكين، وللآخر حمزة بن علي بن أحمد، وهذا من أعظم دعاة الحاكم، كان يؤثره على جميع عشيرته، وكان صاحب الرسائل والمكاتبات عنده. وصنف الدرزي كتاباً كتب فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ومنه إلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم بأمر الله، وقرئ هذا الكتاب في الجامع الأزهر بالقاهرة، فهجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففر منهم، وحدث شغب عظيم في القاهرة وقتلوا كثيرين من أصحابه. وكانت بلغت جريدة أسمائهم ستة عشر ألفاً، ولم يسمع الحاكم بأمر الله بعد أن وقع ما وقع إلا أن يبعث إلى الدرزي في السر مالا وأوعز إليه أن يخرج إلى الشام وينشر فيها الدعوة، فنزل وادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق، وقرأ الكتاب على أهله واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال فكثر مشايعوه وأنصاره.

وكان الأمراء التنوخيون سكان لبنان على استعداد لقبول دعوة الدرزي فانقادوا إليه فسمي جماعته بالدروز. والدروز ينكرون هذه التسمية ويحبون أن يدعوا بالموحدين، وكان يسميهم أصحابهم بالأعراف، وغلب عليهم في حوران في العهد الأخير لقب آل معروف دعوا به تحبباً. وهذا كان من شعار اليمينيين لانقسام هذه الطائفة إلى أصليين من أمهات أصول العرب في هذا القطر وهما القيسية واليمينية، ولما نشأ الدروز يثون دعوتهم بين المسلمين غزوا في عُقر دارهم وفي وادي التيم نحو سنة (٤١٠) على الأرجح وغزوا في جبل السماق من أرجاء حلب لما هاجروا بمذهبهم أيضاً وخربوا ما عندهم من المساجد فقتل دعائهم وأعيانهم سنة (٤٢٣) (خطط الشام م ١).

(١) الدرزي بفتح الدال معناه الخياط فارسي معرب، والعامية تضم الدال ويقولون في الجمع: الدروز، والصواب الدرزة محرقة.

وقع خلاف بين الداعية الأول محمد بن إسماعيل الدرزي والداعية الثاني حمزة بن علي بن أحمد، فكتب التقدم لهذا ومات الدرزي في سنة (٤١١) فقام بالدعوة حمزة وأصبح القوم يقدسونه ويلقبونه بهادي المستجيبين وحجة القائم وغير ذلك. ولما هلك الحاكم كتب حمزة الرسالة المسماة بالسجل المعلق وعلقها على أبواب الجامع وفيها يقول: إن الحاكم اختفى امتحاناً لإيمان المؤمنين، وشرع حمزة يزرع في القلوب بذر الاعتقاد بالوهية الحاكم وتوحيده وعبادته، ويجتمع هو وأتباعه في المعبد السري، حتى ثار عليهم المسلمون وطردهم ففروا من مصر إلى الشام.

قال سليم البخاري: إن الدرزي يخالفون في عقائدهم عقائد الفرق من أرباب الديانات يتظاهرون بالتبعية لمن يكونون تبعاً له، وأما في الباطن فإنهم ينكرون الأنبياء عليهم السلام وينسبونهم إلى الجهل وأنهم كانوا يشيرون إلى توحيد العدم وما عرفوا المولى، ويشنعون بالطعن على جميع أرباب الديانات من المسلمين والنصارى واليهود، والديانة الحقنة عندهم هي توحيد الحاكم، ويفترض عندهم صدق اللسان بدل الصوم وحفظ الإخوان بدل الصلاة.

ويقراءون القرآن ويثولونه ويذهبون إلى قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص، فالجسد يسمى قميصاً عندهم، وأن الميت حين موته تنتقل روحه إلى من يولد وقتئذ، فالأرواح الإنسانية لا تنتقل عندهم إلا إلى قوالب إنسانية. ويقولون: الهوية الإلهية تنتقل من قالب وتحل في قالب آخر في كل عصر، فتجلى في كل زمن بصورة وتجلت أخيراً في الحاكم، وأن حمزة أيضاً ظهر في كل عصر قالب، ففي زمان كان فيثاغورس الحكيم، وفي زمان كان شعيباً، وفي زمان كان سليمان بن داود، وفي زمان كان المسيح الحق، فهو النبي

الكريم عندهم، وحمزة العصر المحمدي هو سلمان الفارسي، ويزعمون أن القرآن قد أوحى حقيقة إلى سلمان الفارسي وأنه كلامه وأن محمدًا أخذه وتلقاه عنه حتى زعموا بأن خطاب لقمان الذي خاطب به ولده في معرض الوصية بقوله: {يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر} هو خطاب سلمان لمحمد، والتعبير بالنبوة إنما هو من خطاب المعلم للمتعلم.

وإذا أراد أحد من جهالهم أن يدخل في سلك الموحدين ينبغي له أن يستجلب رضاهم بتقديم وسائل العطف مدة حتى تتحقق توبته، فإذا قبلوه أدخلوه على الإمام فيوصيه بحفظ السر وعدم إشهاره، ويأمره بتحرير العهد الواجب تحريره؛ إذ لا يكون موحدًا خالصًا بدون تحرير العهد على نفسه، فإذا حرروه وسلمه إلى الإمام صار واحدًا منهم، وصورة العهد وهو المعروف لأول انتشار الدرزية بميثاق ولي الزمان: «توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان إقرارًا أوجبه على نفسه وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره طائعا غير مكره ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها وأنه لا يعرف شيئًا غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره والطاعة هي العبادة وأنه لا يشرك في عبادته أحدًا مضى أو حضر أو ينتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ساء ذلك أم سره، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه أو أشار به إلى غيره أو خالف شيئًا من أوامره، كان بريئًا من البارئ المعبود وحرمة الإفادة من جميع الحدود واستحق العقوبة من البارئ العلي جل ذكره، ومن أقر أن ليس له في السماء إله معبود ولا في

الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين. وكتب في شهر كذا وسنة كذا وكذا من سني عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرشدين بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده».

وليس لأحد من الناس أن يدخل في مذهب الدرور؛ لأن ذلك لا يتأتى إلا إبان الدعوة الأولى؛ وقد سد هذا الباب بعد ذلك. ويحرص الدرور كل الحرص على كتمان عقائدهم ولذلك يعبرون عن مرامهم في كتبهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية فلا يفهم ما يراد منها إلا الطبقة العالية من أرباب الدين عندهم أو مشايخ العقل، ويذكرون مباحث من علم الكلام، وبعض مقالات غلاة المتصوفة، وتأويلات الرافضة والملاحدة، وخصوصاً الإسماعيلية من غلاة الشيعة. ولهم قضاة منهم يحكمون في المعاملات المدنية الجارية بينهم على مقتضى الشريعة؛ غير أنهم يخالفونها في بعض المعاملات بحكم العادة الموروثة وقد اصطالحوا على التوصية بما يشاءون لما يشاءون، ولا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين فإن لم يطلق التي عنده لا يمكنه التزوج بغيرها، وتطلق المرأة بأدنى سبب، ولا يجوز عندهم رد المطلقة ولو كان بعد زوج آخر.

ويقسم الدرور من حيث الدين إلى ثلاثة أقسام: العقال أو الأجاويد والشراح والجهال. ويرخص للشراح بالاطلاع على ما كتبه الشيخ الفاضل بشرح أحد أوليائهم الأمير عبد الله التنوخي الملقب بالسيد دفين قرية عبيه، وهو الذي بنى المساجد وجدد الجوامع، وكان على ما قيل يريد أن يرجع بالدرور إلى مذهب أهل السنة والجماعة توفي سنة (٨٧٤).

ولا يباح للجهال من الديانة غير معرفة المسائل الأولية من الدين. ومن العقال طبقة أتقياء يقال لهم: المتزهون وهم مثابرون على العبادة

والورع، ومنهم من لم يتزوج، ومنهم من لم يأكل لحمًا طول حياته، ومنهم من هو صائم كل يوم، ولا يذوقون شيئًا من بيت أحد من غير العقال. والعقال جميعهم يعتقدون أن أموال الحكام والأمراء حرام فلا يأكلون شيئًا من طعامهم ولا من طعام خدّمتهم ولا من طعام حُمّل على دابة مشتراة من مال حاكم، وقد يعتاشون من عمل لهم خاص يتعاطونه بأنفسهم من زراعة وصناعة، وينزهون ألسنتهم عن ألفاظ الفحش والبذاءة ويتجنبون الإسراف.

واسمع بعد هذا رأي الأمير شكيب أرسلان (من مقالة في جريدة الشورى (١٥) جمادى الثانية سنة (١٣٤٤) في الدروز قال الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية، والشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى. وإذا قيل إن الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام فالجواب أن الدروز يقولون إنهم مسلمون وقيّمون جميع شعائر المسلمين ويتواصون بمرافقة الإسلام والمسلمين في السراء والضراء، ويقولون إن من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم. ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح والذي سمع حديث ((فهلا شققت عن قلبه)) أن يخرج الدروز من الإسلام.

وفي الشرع المحمدي قاعدة: نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر، وقد قال الله تعالى: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا} وهؤلاء لا يلقون السلام فقط بل يلقون السلام ويقولون: إنهم مسلمون، ويحفظون القرآن، ويلقن ملقنهم الميت إذا جاء منكر ونكير وسألك: ما دينك؟ ومن نبيك؟ وما كتابك؟ ومن إخوانك؟ وما قبلتك؟ فقل لهما: الإسلام ديني ومحمد نبي والقرآن كتابي والكعبة قبلتي

والمسلمون إخواني. وليس من شعائر الإسلام شيء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدرود.

وإذا قيل: إنه مع كل هذه المظاهر تحتوي عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء، فالجواب قد وجد في الإسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل وكانوا يقولون بوحدة الوجود! فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة؟ كلا فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من الإسلام؟ وأما تجسد الإله فليس من عقيدة الدرود كما يتهمهم بعضهم والتجسد شيء والتراثي شيء آخر. وأما تأويل آي القرآن الكريم بحسب زعمهم فكم من فرقة في الإسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة ... اهـ.

وبعد فإن للدرود روابط مهمة بينهم منها أنهم مهما كانت بينهم طوائف وحزازات يتخلون عنها ويصبحون جسمًا واحدًا يوم يريدون مقاومة عدو لهم، وهم من التسامح على جانب حتى مع من يخالفهم، ومعظم عاداتهم إسلامية وأسماءهم إسلامية وفيهم من الإسلام شيء كثير من جوهره. وقد رأينا لعهدنا أبناء هذا المذهب كلما تعلموا قربوا من الأصول الإسلامية وفيهم اليوم فئة صالحة مستنيرة تريد الجهر بالرجوع إلى مذهب أهل السنة.

ومن أراد زيادة تفاصيل في مذهب الدرود فعليه بالرجوع إلى كتبهم ورسائلهم وهي محفوظة في دور الكتب العامة هنا وفي الغرب. وينزل الدرود اليوم في شوف لبنان وجبل حوران ووادي التيم وبعض قرى الغوطة بدمشق والجبل الأعلى في حلب وبعض قرى عكا، ولا يقل عددهم عن مائة وأربعين ألفًا.

البابية

مؤسس هذا المذهب رجل من فارس اسمه الميرزا علي محمد الشيرازي ولد سنة (١٢٣٥هـ) وتوفي والده وهو حدث فكفله خاله وعلمه مبادئ الفارسية والعربية وحسن الخط، واشتغل لأول أمره بالتجارة، وفي سن العشرين أخذ يكثر من الرياضة والعبادة فخاف خاله على صحته فأرسله إلى العراق وقضى أشهرًا في كربلاء والنجف اجتمع خلالها إلى علماء الشيعة وخرج من العراق بأفكار تخالق ما عرفه الناس من الإسلام، وأخذ يبث دعوته فمال إليه جماعة وحج في تلك الأيام. وكان يقول ادخلوا البيوت من أبوابها ((أنا مدينة العلم وعلي بابها)) يشير إلى أنه واسطة السعادة الأبدية، ثم دعا نفسه «الباب» ومعنى الباب عند الشيعة المهدي المنتظر وتخلي عن اسمه. وبعد مدة أرسل إلى بوشهر ومنها أرسل دعائه إلى شيراز وأصفهان يشون دعوته، فعقد والي شيراز لهم مجالس المناظرة مع الفقهاء فأفتى هؤلاء بكفر البابية ووجوب قتلهم؛ لكن الوالي اكتفى بقطع العصب الكعبري من كعابهم وسجنهم، وجيء بالباب من بوشهر (١٩ رمضان سنة ١٢٦١) وأنزل في دار أبيه ريثما يهدأ روعة، ثم استقدمه الوالي سرًا وبعد المفاوضة تظاهر الوالي بأنه اقتنع بصحة دعوة الباب وجعل هذا في قصره، ثم عقد له مجلسًا لمناظرته فأفتوا بكفره فلم يسع الوالي إلا أن أشار بضربه على رجليه، فلما استغاث أو عزوا إليه أن يصعد المنبر ويعلن توبته ففعل، وظهر الوباء في شيراز واختلت أحوال فارس فبعث والي أصفهان يستدعي الباب إليه، فلما رأى والي شيراز ذلك نفى جميع أصحاب الباب من ولايته، ولما حُمل الباب إلى والي أصفهان أو عز هذا بأن يحسن القوم استقباله فاستقبلوه، ثم عقد له مجلس المناظرة فأفتى العلماء بقتله، فاعتذر الوالي عن تنفيذ فتواهم، وخبأه في قصره مطلقًا له حرية التأليف والكتابة وبقي في داره حتى قُتل

الوالي وخلفه في الحكم ابن أخيه، فطالع هذا رجال عاصمة الملك بالأمر، فأمروا بنفيه إلى آذربايجان فحبس في قلعة جهريق ثم قلعة ماكو.

وبث الباب دعلته وساعده المحيط واختلال الأمن في كثير من الولايات، فاشتد دعائه في بث دعونه فلقيت قبولاً من بعض الناس، وفي مقدمة أتباعه الملا حسين بشرويه الملقب بباب الأبواب في خراسان، والثاني الملا محمد علي البارفروشي بماندران والثالثة امرأة من قزوين اسمها زرين تاج من عائلة عريقة في العلم وزوجة أحد المجتهدين وهي جميلة الصورة جميلة الأدب، تحفظ القرآن وتعرف تفسيره وأسراره، فاقننن بصحة دعوة الباب، ولم تلبث أن دعت إليه سرًا وجهراً وإن لم تجتمع به، فمال الناس إلى مواعظها وفتنتهم بفصاحتها وجمالها وجميل شعرها، وقد حسرت نقابها ولقبت بقرة العين، ثم خرجت إلى خراسان فالتقت في رشت بالبارفروشي أحد الدعاة ومعه جند من البابية فبعثا منادياً ينادي «عجلوا أيها الناس فقد ظاهر الإمام المنتظر» فنصبوا منبراً ووقفت قرة العين سافرة وحثت الناس على الاعتقاد بالباب؛ فأمن بعضهم وأنكر الآخر، ثم انتقلت على هودج إلى مازندران والناس يتبعونها، وأخذت تطوف القرى تبشر بدعوة الباب فقبضت عليها الحكومة وخنقتها وأحرقتها.

ثم قام الملا حسين بشرويه وقد كثر أنصار الباب وألف منهم جيشاً صغيراً قاتل جيش الشاه في مازندران وجعل الملا علي البارفروشي مقدماً وسماه حضرت أعلى وحجبه عن الناس، وأصيب بشرويه في إحدى المعارك وأوصى جماعته بأن يطيعوا «حضرت أعلى» وتغلبت الحكومة على قلعتهم وقبضوا على ملا محمد علي وحاكموهم فقتلوهم على بكرة أبيهم. وبلغ عدد من قتل في هذه الوقائع ألفين وخمسمائة من البابية وخمسمائة من الجند وغيرهم. وحدث مثل ذلك بقيام أحد الدعاة الملا

محمد علي الزنجاني في زنجان ولكنه لم يُوفق. وكذلك وقع في مدينة تبريز فقاتلت حكومة فارس دعواتهم حتى أبادتهم، أما الباب فكان مسجوناً في سجن جهريق، ولما اندلع لسان الثورة في مازندران وزنجان وتبريز وقتلت الأنفس، ارتأى رئيس حكومة فارس قتله فقتله بمشورة الشاه في ٢٨ شعبان سنة (١٢٦٦هـ). ووضعت حكومة فارس في أشياعهم السيف في جميع مملكتها خصوصاً بعد أن ثبت أن الذي حاول اغتيال ناصر الدين شاه سنة (١٢٦٨) هو من شيعة البابية.

وكان من جملة العلماء الذين فتنوا بدعوة الباب رجل اسمه بهاء الله ميرزا حسين علي، فلما وقعت هذه الحوادث قبض عليه وسجن ثم حوكم، وكان سفير روسيا يدافع عنه من تهمة الاتفاق مع الخارجين على الشاه، ثم أفرج عنه ونفي إلى العراق فأرسل مخفوراً بالجند الفارسي مع بعض فرسان من سفارة روسيا في طهران لئلا يغتالوه في الطريق فأقام في العراق ١٢ سنة، ثم حمل إلى الأستانة ومنها إلى أدرنة فأقام فيها نحو خمس سنين ثم صدر الأمر بنفيه عكا سنة (١٢٨٥هـ)، ونفي أخوه مرزا يحيى نوري الملقب بعد بيحيى صبح أزل إلى قبرس وظل البهاء في عكا حتى وافاه أجله سنة (١٣٠٩) فدفن فيها، وخلفه ابنه عباس أفندي وكان كآبيه على غاية من حسن السمات والأخلاق وعظم النفس ويسط اليد وجمال الأدب وحسن العشرة حتى استمال بأخلاقه من يعتقد بالبابية ومن لا يعتقد، ولما توفي سنة (١٩٢٢) تفرق أمر الجماعة وانقلبوا فرقاً كما كان عباس أفندي في حياته مع صبح أزل متخاصمين متشاكسين، وسرت دعوتهم إلى عدد قليل من أبناء

الشام وإلى بعض أهل أوروبا وأميركا، وبيالغون في عدد من دانوا بهذا المذهب في الغرب. وهم في الشام وفي أميركا وأوروبا بضعة آلاف على الأغلب.

يقولون: إن من تعاليم الباب تحريم الكتب المنزلة قبله ونسخ القرآن وأحكامه. وإنه قضى بهدم المزارات حتى الكعبة وقبر الرسول وفرض بناء ١٩ مزارًا باسمه ومن دخلها كان آمنًا، وأبطل الحج وقسم السنة إلى (١٩) شهرًا وجعل الشهر الواحد ١٩ يومًا فأيام السنة عنده (٣٦١) وأضاف إليها خمسة أيام سماها المسروقة ورمز عنها بحرف (هـ) وجعل أول يوم من شهر (فروردين ماه) الفارسي الموافق للحادي والعشرين من شهر مارس الإفرنجي الغربي الذي هو يوم الاعتدال الربيعي، وهو عيد النوروز عند الفرس عيدًا للفطر وخصه بنسفه وسماه عيد رضوان، وجعل الصوم (١٩) يومًا من شروق الشمس إلى غروبها وخصص الأيام الخمسة المذكورة للهو والطرب قبل دخول شهر الصيام، والمطهرات عنده خمسة: النار والهواء والماء والتراب وكتاب الله (أي البيان كتابه) وكيفية التطهير بالبيان أن يتلى ما تيسر من اسم النقطة؛ أي الباب مع تلاوة آية التطهير (٦٦) مرة على كل شيء نجس. وجعل الدم وروث البهائم وغيرها طاهرًا. وللباب وخليفته بهاء الله عدة رسائل وكتب منها ما كتبه بالفارسية ومنها بالعربية، من أهمها من قلم الباب كتابه البيان وفيه شريعته وتعاليمه. ومن أهم كتب بهاء الله كتاب أقدس نهج فيه منهج القرآن في ترتيب الآيات والسور ودون فيه شريعته وأحكامها باللغة العربية، وقد أدخل البهاء عدة إصلاحات على مذهب الباب اقتضته الحال ذلك، وبعضهم يطلق على أهل هذا المذهب اسم البابية نسبة للمؤسس الأول وبعضهم يلقبهم بالبهائية نسبة لبهاء الله الذي زاد في المذهب ونقص منه، وهم يسمون أنفسهم أهل البيان.

قال كليمان هوار: إن الباب أنشأ دينًا جديدًا بتعاليمه وعقائده وأنشأ مجتمعًا جديدًا تحت ستار الإصلاح في الإسلام، فالله واحد وعلي محمد مرآته التي ينعكس فيها النور الإلهي ويتأتى لكل إنسان أن يشاهدها. وقال

الباب في كتابه البيان: عليكم أن تجعلوا من أنفسكم ومن أعمالكم مرآتي بحيث لا ترون فيها إلا الشمس التي تحبونها، وقد برأ الله العالم على سبع صفات سميت حروف الحقيقة، وهي القدر والقضاء والإرادة والمشية والإذن والأجل والكتاب. ويدير شؤون الطائفة (١٩) رجلاً وكل بابي يدفع لهم في السنة خمسة في المائة من قيمة رأس المال، وتلغى جميع العقوبات ما عدا الغرامة التي توضع على زوجين لا يريدان أن يتعاشرا بالمعروف. والتجارة والعقود مشروعة، ويسمح بدفع فائدة عن بضائع بيعت بالنسيئة، والزواج إجباري بعد الحادية عشرة والطلاق ممقوت، ويمهل الزوجات المتخاضمان سنة لتأليف ذات بينهما، وعلى الأراامل من الرجال والنساء أن يتزوجوا، وعدة الرجال منهم تسعون يوماً والنساء خمسة وتسعون يوماً وإذا لم يفعلوا يغرمان غرامة.

ولا يضرب الولد قبل أن يبلغ الخامسة وبعد ذلك لا يضرب أكثر من خمس ضربات، ويسمح لمن يدينون بهذا المذهب أن يستعملوا الحلبي والجواهر خلافاً لما أمر به الشارع الإسلامي، ويسمح لهم بالوضوء ولكن لا على أنه فرض، ويجب أن يكون في كل حي حمام، ولا يتحجب النساء ويؤذن بالتحدث إليهن من دون إكراه، وأن يكون الكلام معهن جهراً لا سراً، ويحج أتباع الباب إلى البيت الذي ولد فيه حيث يقام له مسجد، أو إلى المكان الذي سجن هو فيه أو خاصة حواريه، ولا يسمح لمن يدينون بمذهبهم بالارتحال والسياحة إلا لمن اضطر إلى ذلك، ولا يسمح بركوب البحار منهم إلا للحجاج والتجار، ولا تقام صلاة جماعة إلا على الأموات وخطبة المسجد واجبة، ويدفن الموتى في زجاج أو في حجارة منحوتة مصقولة، ويجعل في يد الميت اليمنى خاتم يكتب على فمه: «لثلا يفزع الموتى في قبورهم». وليس من حق أحد أن يستعمل الشدة مع إنسان ولا أن يسيء إلى أخيه، ويجيبون على كل من يكلمهم أو يكاتبهم

ويفرض عليهم أن يؤدوا الرسالة التي ائتمنوا عليها إلى صاحبها من دون عبث بها. ويحظر عليهم تعاطي المخدرات والمسكرات، ويجب أن يدعو كل واحد منهم في كل شهر تسعة عشر إنساناً، وأن يجتمع معهم ولو على شرب الماء القراح، ويحظر عليهم الكدية، ومن الضلال إعطاء الشحاذين. وتقسم مواريتهم على الصورى التالية بعد صرف نفقات الدفن والجنائزة: للولد ٩ من ستين، وللزوج ٨ من ستين، وللوالد ٧ من ستين، وللأم ٦ من ستين، وللأخ ٥ من ستين، وللأخت ٤ من ستين، وللأستاذ ٣ من ستين، ولا يرث أحد من ذوى القربى بعد ذلك اهـ.

وحُظر على البابية لما نزلوا عكا الدعاية إلى مذهبهم في الشام، ولما أعلنت الحرية سنة (١٩٠٨) انتقلوا إلى عكا وزاد أشياعهم قليلاً وهم هنا قلائل ربما لم يتجاوزوا المائتين وهم على غاية من حسن الأخلاق وجميل المعاملة فلما شكوا منهم إنسان أو اشتكواهم من إنسان، ولا تجد بينهم من لا يحترف حرفة ويعمل ويكد؛ ولا سيما رئيسهم الأخير عباس أفندي فقد كان محافظاً على صلواته مع الجماعة لم يخرج في سمته عن روح الشرع الإسلامى؛ فإما أن يكون صادقاً في إسلامه أو أنه عاش في تقية متقنة كما يعيش كثير من أرباب النحل الضعيفة بين المخالفين لهم من السواد الأعظم، ولا سيما الشيعة بين ظهرائي أهل السنة.

وكان عباس على علم وأدب إذا تكلم يمزج الفلسفة بالمنقولات فيتعذر على كل إنسان فهم كلامه، وله خطب ومواعظ انطلق بها لسانه في سياحة له في أوروبا وأمريكا دانت خمس سنين، ويؤخذ من مجموع أقواله أن البهائية أو البابية ترمي إلى تطبيق الشرائع على العقل وحل المشاكل القائمة بين أهل الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام. وقال مرة: إن الباب صاحب المذهب كان يريد التوفيق بين السنة والشيعة. بل كان يرمي إلى وحدة العالم الإنساني ونشر السلام العام والتأليف بين

قلوب البشر بقوة الدين وتحكيم العقل والعلم، ونبذ التعصب الديني والجنسي والوطني والسياسي، ونشر العلم وإنشاء محكمة عامة كبرى تفصل الخلافات التي تحدث بين الشعوب والدول، وإلى تربية بني البشر على الفضائل الإنسانية وإلى إقامة القواعد الاقتصادية وتأليف لغة عامة تفهمها جميع الأمم.

ويقال على الجملة: إن التشيع كان منشأ البابية والإسماعيلية والتصيرية والدرزية. وكما كانت فارس مثابة كثير من أسباب المدنية الإسلامية كانت أيضًا منشأ معظم ما تفرع من الإسلام من النحل والطرق الغربية. ولو تسامح أهل هذه المذاهب في نشر حقائقها، لما تقول عليهم المتقولون، ولا رماهم المخالفون بما قد يكونون منه أبرياء، بقي أن يقال: إن في الشام مذهب اليزيدية عبدة الشيطان، وممن ينتحلون هذه النحلة قريطان في ضواحي حلب، ولما كانت جمهرة أهل مذهبهم في جبل سنجار من عمل الموصل لم نخصهم بمبحث خاص؛ لأنهم لا يسترعون الانتباه ويتمثلون على الأغلب في سواد الأمة، والله أعلم.